عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء الرابع عشر

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجر

مقدمة

قال صاحب البصائر : هذه السورة مكية إجماعاً . وعدد آياتها تسع وتسعون بلا خلاف . وكلماتها ستمائة وأربع وخمسون . وحروفها ألفان وسبعمائة وستون .

وتسمى **سورة الحجر** : لاشتمالها على قصتهم ، وقوله : ﴿ **ولقد كذَّب أصحاب الحجر المرسلين** ﴾ .

مقصود السورة إجمالا : بيان حقيقة القرآن ، وحفظ الحق وبرهان النبوة وحفظ الحق كتابه العزيز من التغيير والتبديل .

وتزيين السماوات بمواكب الكواكب وحفظهما برجوم النجوم من استراق الشياطين السمع ، وتقديره تعالى الماء والسحاب من خزائن بره ولطفه ، وعلق تعالى بأحوال المتقدمين فى الطاعة والمتأخرين عنها .

وبيان الحكمة فى تخليق آدم ، وأمر الملائكة المقربين بسجوده وتعيير إبليس وملامته على تأبيه واستكباره وجحوده ، واستحقاقه اللعنة من الله بعصيانه وطغيانه ، وجراءته بالمناظرة لخالقه ومعبوده .

وبيان قسم الدركات (على أهل اللذات والضلالات) وذكر المستوجبى الجنة من المؤمنين ، وإخبار الله تعالى عباده بالرحمة والغفران ، وتهديدهم بالعذاب والعقاب .

والإشارة إلى ذكر أضياف الخليل عليه السلام ، والنهى عن القنوط من الرحمة ، وذكر آل لوط ، وسكرتهم فى طريق العماية والضلالة ، وتسلية النبى ﷺ عن جفاء الكفار ، وبذىء أقوالهم .

والمَنُّ عليه ﷺ بنزول السبع المثانى والقرآن العظيم ، والشكوى عن الطاعنين فى القرآن .

وذكر القسم بوقوع السؤال فى القيامة ؛ وأمر الرسول ﷺ بإظهار الدعوة ، والمن عليه بإهلاك أعداء دينه ، ووصيته بالعبادة إلى يوم الحق واليقين فى قوله : ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ **لو ما تأتينا** ﴾ وفى غيرها . (لولا) ، لأن (لولا) يأتى على وجهين : أحدهما امتناع الشىء لوجود غيره ، وهو الأكثر . والثانى بمعنى هلا وهو التخصيص . ويختص بالفعل . و (لو ما) بمعناه . وخُصّت هذه السورة بلوما ، موافقة لقوله : (رُبَما) فإنها أيضاً مما خُصّت به هذه السورة .

قوله : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً** ﴾ ، وفى البقرة : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة

إنى جاعل ﴾[1] ولا ثالث لهما ، لأن (جعل) إذا كان بمعنى (خلق) يُستعمل فى الشىء يتجدد ويتكرر ؛ كقوله : ﴿ خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾[2] ، لأنهما يتجددان زمانا بعد زمان . وكذلك الخليفة يدل لفظه على أن بعضهم يخلف بعضاً إلى يوم القيامة . وخُصّت هذه السورة بقوله : ﴿ **إنى خالق بشراً من صلصال** ﴾ إذ ليس فى لفظ البشر . ما يدل على التجدد والتكرار ، فجاء فى كل واحدة من السورتين ما اقتضاه ما بعدهما من الألفاظ .

قوله : ﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون** ﴾ فى هذه السورة ، وفى صۤ ؛ لأنه لما بالغ فى السورتين فى الأمر بالسجود وهو قوله : ﴿ **فقعوا له ساجدين** ﴾ فى السورتين بالغ فى الأمتثال فيهما فقال : ﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون** ﴾ ليقع الموافقة بين أُولاهما وأُخراها .

قوله هنا لإبليس : ﴿ **اللعنة** ﴾ وقال فى ص ﴿ **لعنتى** ﴾ لأن الكلام فى هذه السورة جرى على الجنس فى أول القصة فى قوله : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان** ﴾ ﴿ **والجان خلقناه** ﴾ ﴿ **فسجد الملائكة كلهم** ﴾ لذلك قال : (اللعنة) ، وفى ص تقدم ﴿ لما خلقت بيدى ﴾ فختم بقوله ﴿ لعنتى ﴾ .

قوله ﴿ **ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍّ** ﴾ وزاد فى هذه السورة ﴿ **إخواناً** ﴾ لأنها نزلت فى أصحاب رسول الله ﷺ ، وما سواها عام فى المؤمنين .

قوله فى قصة إبراهيم : ﴿ **فقالوا سلاماً قال إنا منكم وَجِلُون** ﴾ لأن هذه السورة متأخرة ،فاكتفى بما فى هود ؛ لأن التقدير : فقالوا : سلاماً ، قال : سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قال : إنا منكم وجلون . فحذف للدلالة عليه .

قوله : ﴿ **وأمطرنا عليهم** ﴾ وفى غيرها ﴿ وأمطرنا عليها ﴾ قال بعض المفسرين (عليهم) أى على أهلها ، وقال بعضهم : على من شَذ من القرية منهم .

وقال تاج القراء : ليس فى القولين ما يوجب تخصيص هذه السورة بقوله : (عليهم) بل هو يعود إلى أول القصة . وهو ﴿ **إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين** ﴾ ثم قال : ﴿ **وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل** ﴾ قال : وهذه لطيفة فاحفظها .

قوله : ﴿ **إن فى ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ بالجمع وبعدها ﴿ **لآية للمؤمنين** ﴾ على التوحيد .

قال الإمام : الأولى إشارة إلى ما تقدم من قصة لوط (وضيف إبراهيم ، وتعرّض قوم لوط لهم) طمعاً فيهم ، وقلب قرية على من فيها ، وإمطار الحجارة عليها ، وعلى من غاب منهم . فختم بقوله : ﴿ **لآيات للمتوسمين** ﴾ أى لمن يتدبر السِّمة ، وهى ما وسم الله به قوم لوط وغيرهم .

قال : والثانية تعود إلى القرية : ﴿ **وإنها لبسبيل مقيم** ﴾ وهى واحدة ، فوحد الآية .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة البقرة . (٢) الآية ١ من سورة الأنعام .

وقيل : ما جاء فى القرآن من الآيات ، فلجمع الدلائل . وما جاء من الآية فلوحدانية المدلول عليه ، فلمّا ذكر عقبة المؤمنين ، وهم مقرون بوحدانية الله تعالى ، وحد الآية . وليس لها نظير إلا فى العنكبوت . وهو قوله تعالى ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين)** ﴾ فوحد بعد ذكر الجمع لما ذكرت والله أعلم .

المناسبة

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنها افتتحت بمثل ما افتتحت به سابقتها من وصف الكتاب المبين .

(٢) إنها شرحت أحوال الكفار يوم القيامة وتمنيهم أن لو كانوا مسلمين كما كانت السالفة كذلك .

(٣) إن فى كل منهما وصف السموات والأرض .

(٤) إن فى كل منهما قصصاً مفصلا عن إبراهيم عليه السلام .

(٥) إن فى كل منهما تسلية لرسوله ﷺ بذكر مالاقاه الرسل السالفون من أممهم وكانت العاقبة للمتقين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾

المفردات : ﴿ **رُبما** ﴾ : بضم الراء وتخفيف الباء وتشديدها ، كلمة تدل على أن ما بعدها قليل الحصول . فإذا قيل ربما زارنا فلان دل على أن حصول الزيارة منه قليل . ﴿ **يلههم** ﴾ : أى يشغلهم من قولهم . لهيتُ عن الشيء ألْهى لَهْياً إذا أعرضت عنه ، ﴿ ماتسبق ﴾ : أى ما يتقدم زمان أجلها .

قوله تعالى : ﴿ **آلر** ﴾ هذه بعض حروف الهجاء التى يقصد منها الإشارة إلى إعجاز هذا الكتاب المنزّل على سيدنا محمد ﷺ المنقول إلينا بطريق التواتر ، المتعبد بتلاوته المتحدّى بلفظه . وقد أشار الله تعالى إلى آيات هذا الكتاب ، والقرآن المبين إشارة تفيد تفخيمه وتعظيمه ، فهى آيات بينات ، وهو قرآن واضح بيِّن ﴿ وإنه لقرآن كريم * فى كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين ﴾ (١) وهو تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، وهو الكتاب الحكيم .

(١) الآيات ٧٧ — ٨٠ من سورة الواقعة .

وهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، وهو تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، وهو تنزيل من الرحمن الرحيم ، وهو الكتاب المبين ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين .

قوله تعالى : ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ رُوى فى تفسير هذه الآية أقوال مأثورة نلخصها فيما يلى :

نقل السدى فى تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة : أن كفار قريش لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين وقيل : المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً ، وقيل:هذا إخبار عن يوم القيامة كقوله تعالى ﴿ ولوترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾(١) .

قال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا مسلم حدثنا القاسم حدثنا ابن أبى فروة العبدى أن ابن عباس وأنس بن مالك كانا يتأولان هذه الآية ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ يتأولانها يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين فى النار ، قال : فيقول لهم المشركون ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون فى الدنيا ، قال : فيغضب الله لهم بفضل رحمته ، فيخرجهم فذلك حين يقول : ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ .

قال الطبرانى بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن ناساً من أهل لا إلّه إلا الله يدخلون النار بذنوبهم فيقول لهم أهل اللات والعزى ما أغنى عنكم قولكم لا إلّه إلا الله وأنتم معنا فى النار ؟ فيغضب الله لهم فيخرجهم فيلقيهم فى نهر الحياة فيبرءون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ويدخلون الجنة ويسمون فيها الجهنميين) فقال رجل : (يا أنس أنت سمعت رسول الله ﷺ ؟ فقال أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)(٢) نعم أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا .

قال الطبرانى بسنده عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا اجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى ، قالوا فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا فى النار ؟ قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فسمع الله ما قالوا فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا . فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا : ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا ــ قال ثم قرأ رسول الله ﷺ ــ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :
﴿ **الّر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين * ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ .

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الأنعام .

(٢) أخرجه البخارى فى العلم (٣٨) . ومسلم فى الإيمان (١١٢) . وأبو داود فى العلم (٤) . والترمذى فى العلم (٦ ، ٨ ، ١٣) . وابن ماجه فى المقدمة (٤ ، ٢٣) . والدارمى فى المقدمة (٢٥ ، ٤٦ ، ٥٠) . والإمام أحمد فى (١ : ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٢٢٣) .

وقال الطبرانى أيضاً بسنده : عن صالح بن أبى شريف قال : سألت أبا سعيد الخدرى فقلت له : هل سمعت رسول الله ﷺ يقول : فى هذه الآية ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ ؟ قال : نعم سمعته يقول : (يخرج الله ناساً من المؤمنين من النار بعد ما تأخذ نقمته منهم) وقال (لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال لهم المشركون تزعمون أنكم أولياء الله فى هذه الدنيا فما بالكم معنا فى النار ، فإذا سمع الله ذلك منهم أذن فى الشفاعة لهم فيشفع لهم الملائكة والنبيون ويشفع المؤمنون حتى يخرجوا بإذن الله ، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا : ياليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة فنخرج معهم) قال فذلك قول الله ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ فيسمون فى الجنة الجهنميين من أجل سواد فى وجوههم ، فيقولون : يارب أذهب عنا هذا الاسم فيأمرهم فيغتسلون فى نهر الجنة فيذهب ذلك الاسم عنهم .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن محمد بن على عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : (منهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حجزته ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه على قدر ذنوبهم وأعمالهم ، ومنهم من يمكث فيها شهراً ثم يخرج منها ، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها ، وأطولهم فيها مكثاً بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفنى ، فإذا أراد الله أن يخرجهم منها قالت اليهود والنصارى ومن فى النار من أهل الأديان والأوثان لمن فى النار من أهل التوحيد : آمنتم بالله وكتبه ورسله فنحن وأنتم اليوم فى النار سواء ، فيغضب الله لهم غضباً لم يغضبه لشىء فيما مضى فيخرجهم إلى عين فى الجنة) . وهو قوله : ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون** ﴾ :

أخرج أحمد والطبرانى والبيهقى عن عمرو بن شعيب مرفوعاً قال : (صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل والأمل)[١] .

وروى عن الحسن أنه قال : « ما أطال عبد الأمل ، إلا أساء العمل » .

وروى عن على أنه قال : « إنما أخشى عليكم اثنتين طول الأمل واتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسى الآخرة ، واتباع الهوى يَصُدُّ عن الحق » .

وفى الآية وعيد شديد للذين يتمرغون فى نعم الله ويأكلون من خيره ويعبدون غيره ، فذرهم ودعهم ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾[٢] ﴿ وفى ريبهم يترددون ﴾[٣] ﴿ يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾[٤] ﴿ قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار ﴾[٥] . ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾[٦]

إن هؤلاء الذين يأكلون ويتمتعون قد ألهتم الآمال عن اقتراب الآجال ، فظنوا أنهم مخلدون ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٣ : ١٥ ، ١١٩ ، ١٦٩ ، ٢٧٥) .
(٢) الآية ٩١ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٤٥ من سورة التوبة .
(٤) الآية ١٢ من سورة محمد .
(٥) الآية ٨ من سورة الزمر .
(٦) الآيتان ١٩٦ ، ١٩٧ من سورة آل عمران

ونسوا أن الموت يأتيهم بغتة ، كما نسوا يوم الحساب ، فذرهم ولا تكثر عليهم التأسف ، فسوف يعلمون لمن عقبى الدار ، وغداً توفى النفوس ما كسبت ، فالناس غداً بين يدى الله موقوفون ، وعن أعمالهم محاسبون ، وعلى رب العزة سيُعرضون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

قوله تعالى : ﴿ **وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم** ﴾ :

هذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن القرى التى أهلكها بسبب ظلمها وعتوها ونفورها ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين ۞ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[1] .

ما أهلك الله قرية إلا ولها أجل معلوم ، فى كتاب مبين ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾[2] ﴿ وكل شىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾[3] .

وقد أكد الله تعالى معنى الآية فى قوله ﴿ **ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون** ﴾ فلكل أجله الذى سبق فى علم الله وعلم الله قد أحاط بكل شىء ، وما سبق فى العلم لا يختلف ولا يتخلف زماناً ولا مكاناً ، فسبحان من أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً . الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، سبحانه علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخبر ، حقت كلمته أن يهلك من افترى وطغى وبغى ، وأصر وظلم واستكبر .

إذا ما الظلم حل بأرض قوم وعم الفسق وانتشر البلاءْ
فويل ثم ويل ثم ويل لأهل الأرض من رب السماءْ

افتراءات باطلة

وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

(١) الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة القصص . (٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام . (٣) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الرعد .

المفردات : ﴿ **الذكر** ﴾ : هو القرآن . ﴿ **لوماً** ﴾ : مثل (هلا) كلمة تفيد الحث والحض على فعل ما يقع بعدها . ﴿ **منظرين** ﴾ : أى مؤخرين . ﴿ **الشيع** ﴾ : واحدهم شيعة وهى الجماعة المتفقة على مبدأ واحد فى الدين والمعتقدات أو فى المذاهب والآراء . ﴿ **نسلكه** ﴾ : أى ندخله يقال سلكت الخيط فى الإبرة : أى أدخلته فيها . ﴿ **يعرجون** ﴾ : يصعدون . ﴿ **سكرت** ﴾ : سددت ومنعت من الإبصار .
﴿ **مسحورون** ﴾ : أى سحرنا محمد بظهور ما أبداه من الآيات .

المناسبة : بعد أن هدد سبحانه الكافرين وبالغ فى ذلك أيما مبالغة ، شرع يذكر بعض مقالاتهم فى محمد ﷺ المتضمنة للكفر بما جاء به ، ثم يذكر ما هم فيه من جحود وعناد بلغا مدى تنكر معه المشاهدات ، ويدعى معه السحر والخداع حين رؤية المبصرات .

ثم ذكر سبحانه لرسوله ﷺ تسلية له أن ما صدر منهم من السفه ليس بدعاً ، فهذا دأب كل ممجوج ، فكثير من الأمم السالفة فعلت مثل هذا مع أنبيائها ، فلك أسوة بهم فى الصبر على سفاهتهم وجهلهم .

قال مقاتل : القائلون هذه المقالة هم عبد الله بن أمية ، والنضر بن الحارث ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة ، من صناديد قريش .

قوله تعالى : ﴿ **وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون * لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين * ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين * إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ :

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم ، فى قولهم ﴿ **يا أيها الذى نزل عليه الذكر** ﴾ :

أى الذى تدعى ذلك . ﴿ **إنك لمجنون** ﴾ : أى فى دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا .

﴿ **لوما** ﴾ أى هلا ﴿ **تأتينا بالملائكة** ﴾ أى يشهدون لك بصحة ما جئت به ، كما قال فرعون : ﴿ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾[١] .

﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً * يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً ﴾[٢].

وكذا قال فى هذه الآية ﴿ **وما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا منظرين** ﴾ :

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الزخرف .
(٢) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة الفرقان .

قال مجاهد فى قوله ﴿ **ما ننزل الملائكة إلا بالحق** ﴾ : أى بالرسالة والعذاب .

ثم قرر تعالى أنه هو الذى أنزل عليه الذكر ، وهو القرآن ، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل ، ومنهم من أعاد الضمير فى قوله تعالى ﴿ **له لحافظون** ﴾ على النبى ﷺ كقوله تعالى ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾[1] والمعنى الأول أولى وهو ظاهر السياق .

قوله تعالى ﴿ **ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين.وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون. كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين** ﴾ :

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ فى تكذيب من كذبه من كفار قريش : أنه أرسل من قبله من الأمم الماضية ، وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزأوا به .

ثم أخبر أنه سلك التكذيب فى قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى .

قال أنس والحسن البصرى : ﴿ **كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين** ﴾ : يعنى الشرك ، وقوله تعالى : ﴿ **قد خلت سنة الأولين** ﴾ أى قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار ، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى ﴿ **ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون** ﴾ :

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ، ومكابرتهم للحق ، أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك ، بل قالوا ﴿ **إنما سكرت أبصارنا** ﴾ :

قال مجاهد وابن كثير والضحاك : سدت أبصارنا .

وقال قتادة عن ابن عباس : أخذت أبصارنا .

وقال العوفى عن ابن عباس : شبه علينا وإنما سحرنا .

وقال الكلبى : عميت أبصارنا .

وقال ابن زيد : سكرت أبصارنا:السكران الذى لا يعقل .

---

(١) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

من آيات الله الكونية

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

المفردات : ﴿ **البروج** ﴾ : واحدها برج وهى النجوم العظام ومنها البروج الاثنا عشر المعروفة فى علم الفلك . ﴿ **للناظرين** ﴾ : أى المفكرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها . ﴿ **وحفظناها** ﴾ : أى منعناها . ﴿ **والرجيم** ﴾ : أى المرجوم المرمى بالرجام : أى الحجارة والمراد بالرجيم هنا المرمى بالنجوم . ﴿ **واسترق** ﴾ : من السرقة وهى أخذ الشيء خفية . شبه من خطفتهم اليسيرة من الملأ الأعلى . ﴿ **والسمع** ﴾ : المراد به ما تسمع. ﴿ **والشهاب** ﴾ : الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن السحاب فى الجو وتبعت القوم تبعاً وتباعة . ﴿ **بالفتح** ﴾ : أى مشيت خلفهم أو مروا بك فمضيت معهم وأتبعت القوم إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم . ﴿ **مددناها** ﴾ : أى بسطناها . ﴿ **الرواسى** ﴾ : واحدها راسية وهى الجبال الثوابت . ﴿ **موزون** ﴾ : أى مقدر بمقدار معين تقتضيه الحكمة والمصلحة .

المناسبة

بعد أن ذكر شديد جحودهم ، وأنهم مهما أوتوا من الآيات لم يفدهم ذلك شيئاً ، حتى بلغ من أمرهم أن ينكروا المشاهدات ، ويدعوا الخداع حين رؤية المبصرات . أعقب هذا ببيان أنهم كانوا فى غنى عن كل هذا ، فإن فى السماء وبروجها العالية ، وشموسها الساطعة ، وأقمارها النيرة ، وسياراتها الدائرة ، وثوابتها الباسقة ، عبرة لمن اعتبر ، وحجة لمن ادكر ، فهلا نظروا إلى الكواكب وحسابها ونظامها ومداراتها ، وكيف حدثت بها الفصول والسنون ، وكيف كان ذلك بمقادير محددة ، وأوقات معلومة ؟ لا تغيير فيها ولا تبديل ، فبأمثال هذا يكون اليقين وبالتدبر فيه تقوى دعائم الدين ، ويشتد أزر سيد المرسلين ، وهلا رأوا الأرض كيف مدت ، وثبتت جبالها . وأنبتت نباتها بمقادير معلومة موزونة فى عناصرها وأوراقها وأزهارها وثمارها ، وجعل فيها معايش للإنسان والحيوان ، أفلا يعتبرون بكل هذا ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[1] .

---

(١) الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة الذاريات .

قوله تعالى ﴿ **ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين** ﴾ :

أى وقد خلقنا فى السماء نجوماً كباراً ثوابت ، وسيارات ، وجعلناها وكواكبها بهجة لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من عجائبها الظاهرة ، وآياتها الباهرة ، التى يحار الفكر فى دقائق صنعتها ، وقدرة مبدعها .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾(١) .

﴿ **وحفظناها من كل شيطان رجيم** ﴾ :

أى ومنعنا كل شيطان رجيم من القرب منها ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾(٢) أى وحفظناها من كل شيطان خارج من الطاعة برميه بالشهب كما تحفظ المنازل من متجسس يخشى منه الفساد .

﴿ **إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين** ﴾ : أى لكن من أراد اختطاف شيء مما يتحدث به الملائكة فى الملأ الأعلى ، تبعه كوكب مشتعل ناراً ظاهراً للمبصرين ، فأحرقه ولم يصل إلى معرفة شيء مما يدبر فى ملكوت السموات ، وبهذا المعنى قوله ﴿ لا يسَّمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ﴾(٣) .

وجاء بمعنى الآية قوله فى سورة الجن ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾(٤) .

وقوله فى سورة الملك ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾(٥) .

وبعد :

فالكتاب الكريم أخبر بأن الشياطين أرادوا أن يختطفوا شيئاً مما لدى الملائكة الكرام فسلطت عليهم الشهب المشتعلة والنجوم المتقدة فأحرقتهم .

وبعد أن ذكر الدلائل السماوية على وحدانيته ، أتبعها بذكر الدلائل الأرضية ، فقال ﴿ **والأرض مددناها** ﴾ :

أى وقد بسطنا الأرض ، وجعلناها ممتدة الطول والعرض والعمق يمكن الانتفاع بها على الوجه الأكمل .

وهذا فيما يظهر على مرأى العين ، فلا يدل على نفى الكروية عن الأرض . لأن الكرة العظيمة

(١) الآية ٦ من سورة الصافات .
(٢) الآية ٧ من سورة الصافات .
(٣) الآية ٨ من سورة الصافات .
(٤) الآيات ٨ ، ٩ من سورة الجن .
(٥) الآية ٥ من سورة الملك .

ترى كالسطح المستوى . ﴿ **وألقينا فيها رواسى** ﴾ : أى وجعلنا فيها جبالا ثوابت ، خوف أن تضطرب بسكانها ، كما قال فى آية أخرى ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ﴾[1] .

قوله تعالى ﴿ **وأنبتنا فيها من كل شىء موزون** ﴾ :

أى أن كل نبات قدوُزنت عناصره وقدرت تقديراً ، فترى العنصر الواحد يختلف فى نبات عنه فى آخر بواسطة امتصاص الغذاء من العروق الضاربة فى الأرض ، ومنها يرفع إلى الساق والأغصان والأوراق . والأزاهير ، والذى حدد هـذا الاختلاف تلك الفتحات الشعرية التى فى ظواهر الجذور وثقوب كل نبات لا تسع إلا المقدار اللازم لها من العناصر ، وتطرد ما سواه ، لأنه لا يلائمها إذ هى قد كونت على هيئة خاصة بحيث لا تبتلع إلا تلك المقادير بعينها .

وهاك عنصر البوتاس تره يدخل فى حب الذرة الذى تأكله بمقدار ٣٢٪ ، وفى القصب ٣ر٣٤٪ وفى البرسيم بمقدار ٦ر٣٤٪ ، وفى البطاطس بمقدار ٥ر٦١٪ ، وبهذا التفاوت صلح القصب لأن يكون سكراً والبرسيم لأن يكون قوتاً للبهائم والذرة والبطاطس لأن تكونا قوتاً للانسان .

قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين** ﴾

أى أن أنواع معايشكم من غذاء وماء ولباس ودواء قد سخرناها لكم في الأرض ، فلا السمك في البحر غذيتموه ، ولا الطير في الجو ربيتموه ، ولا غيرهما من أشجار الجبال والغابات وحيوان البر والبحر خلقتموه .

﴿ **ومن لستم له برازقين** ﴾ أى وجعلنا لكم فيها من لستم رازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب ، وفي هذا إيماء إلى أن الله يرزقهم وإياهم ، لا أنهم يرزقونهم ، وفي ذلك عظيم المنة وجزيل الفضل والعطاء وواسع الرحمة لعباده .

وخلاصة هذا :

أنه سبحانه يسَّر لكم أسباب المكاسب وصنوف المعايش ، وسخر لكم الدواب التي تركبونها ، والأنعام التي تأكلونها ، والعبيد التي تستخدمونها ، فكل أولئك رزقهم على خالقهم لا عليكم ، فلكم منها المنفعة ورزقها على الله تعالى .

(١) الآية ١٥ من سورة النحل .

الحكمة الإلهية والقدرة الباهرة

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

المفردات : ﴿ **الخزائن** ﴾ : واحدها خزانة وهي المكان الذي تحفظ فيه نفائس الأموال . ﴿ **واللواقح** ﴾ : واحدها لاقح أى ذات لقاح وحمل . ﴿ **وأسقيناكموه** ﴾ : أى جعلناه لكم سقيا لمزارعكم ومواشيكم ، تقول العرب إذا سقت الرجل ماء أو لبنا : سقيته . وإذا أعدوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته. قالوا : أسقيته ، أو أسقيت أرضه أو ماشيته . ﴿ **والمستقدمين** ﴾ : من ماتوا . ﴿ **والمستأخرين** ﴾ : الأحياء الذين لم يموتوا بعد .

المناسبة

بيَّن سبحانه فيما سلف أنه أنزل النبات وجعل لنا فيه معايش في هذه الحياة ، وهنا أتبعه بذكر ما هو كالسبب في ذلك ، وهو أنه تعالى مالك كل شيء ، وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه ، فإن عنده خزائن الأشياء من النبات والمعادن النفيسة والمخلوقات البديعة مما لا حصر له .

قوله تعالى : ﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾ .

هذا من دلائل عظمة الخالق جل جلاله ، له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شيء عليم ، وما من شيء في هذا الوجود إلا وخزائنه مملوكة لله ، فالنبات والماء والحيوانات والمال وكل شيء نراه أو لانراه مملوك للواحد الديان ، وينزل على عباده بقدر معلوم ومقدار معين ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾[١] ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾[٢] ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾[٣].

(١) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٢٧ من سورة الشورى .
(٣) الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

قوله تعالى : ﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين** ﴾

قال الشيخ المراغي في تفسيرها :

أى أن من فضله على عباده وإحسانه إليهم أن أرسل إليهم الرياح لواقح ، ويكون ذلك على ضروب :

١ – أن يرسلها حاملات للسحاب فتلقح بها الأشجار بما تنزل عليها من الأمطار فتغيرها من حال إلى حال ، فتعطيها حياة جديدة إذ تزدهر أزهارها وتثمر أغصانها ، بعد أن كانت قد ذبلت وصوحت وأصبحت في مرأى العين كأنها ميتة . لا حياة فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته حتى إذاأقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت ﴾[1].

٢ – أن يرسلها ناقلة لقاح الأزهار الذكور إلى الأزهار الإناث ، لتخرج الثمر والفواكه للناس .

٣ – أن يرسلها لتزيل عن الأشجار ما علق بها من الغبار لينفذ الغذاء إلى مسامها ، فيكون ذلك رياضة للشجر والزرع كرياضة الحيوان .

﴿ **فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه** ﴾ أى فأنزلنا من السحاب مطراً فأسقيناكم ذلك المطر لشرب زرعكم ومواشيكم ، وفي ذلك استقامة أمور معايشكم ، وتدبير شئون حياتكم إلى حين ، كما قال : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حى ﴾[2].

﴿ **وما أنتم له بخازنين** ﴾ : أى ولستم بخازني الماء الذي أنزلناه فتمنعوه من أن أسقيه من أشاء ، لأن ذلك بيدي وهو خاضع لسلطاني إن شئت حفظته على سطح الأرض ، وإن شئت غار في باطنها وتخلل طبقاتها فلا أبقي منه شيئاً ينفع الناس والحيوان ، ويسقي الزرع الذي عليه عماد حياتكم .

والخلاصــة : نحن القادرون على إيجاده وخزنه في السحاب ، وإنزاله ، وما أنتم على ذلك بقادرين .

وللعلم كلمة : جاء في كتاب القرآن والعلم للدكتور محمد جمال الدين الفندي ما نصه :

﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين** ﴾

قـــال :

إذ تذكر هذه الآية من إعجاز أخاذ حقيقتين علميتين . **الأولى** : أن الرياح إنما تلقح السحب لتجود بالمطر ، **والثانية** : أن هذا المطر لا سبيل إلى خزنه على الدوام في مكان معين من غير أن يتسرب إلى البحر ليتم العملية الطبيعية التي نعرفها اليوم باسم (الدورة المائية) أو (دورة الجو المائية) التي تتم بين الجو وماء الأرض .

---

(١) الآية ٥٧ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٣٠ من سورة الأنبياء .

وأن الرياح التي اكتشف العلم أنها من أهم العوامل الأساسية في تلقيح كثير من النباتات ، نجدها تلقح السحاب ليجود بالمطر كذلك ، أن تلقيح الرياح عملية تتضمن إمداده بأكداس من جسيمات صغيرة مجهرية (نوى – التكاثف) ، هي التي تتجمع عليها جزيئات بخار الماء لتكون نقط المطر النامية ، وأعجب العجب أن العلماء يحاولون في عصرنا هذا تلقيح السحب صناعياً بالطائرات ، أو بمولدات خاصة عن طريق مدها بنوى التكاثف هذه عندما يعجز الهواء ، أوتعجز الرياح عن أداء هذه المهمة طبيعياً .

ومن البديهي أن قد نزلت هذه الآية في زمن لم يكن الناس يعرفون فيه انطلاق مياه البحر على هيئة أبخرة تحملها الرياح ، حتى إذا ما برد الهواء في مناطق. تكون السحب تكاثفت أبخرة المياه التي يحملها وتحولت إلى نقط من الماء لا تلبث باستمرار عمليات التكاثف التي تسقط على هيئة مطر يتجمع ماؤه في المجاري والأنهار التي تصب بدورها في المحيطات والبحار لتعيد الكرة من جديد . ولقد كان الرأى السائد أن ماء المطر إنما يأتي هكذا من السماء ، ولم يكن يخطر ببال أحد أن الرياح هي التي تثير السحاب الذي يجود بالمطر حتى أثبت علم الأرصاد الجوية أخيراً في عصر النهضة العلمية أن الأصل في إثارة السحب ونزول المطر هو إرسال الرياح لتتجمع في مكان معين ، بل أن آخر تقسيم علمي أجري لأنواع السحب والأمطار عمل بحيث تطابق أوصافها طبيعية انسياب الرياح التي تثيرها . فهناك السحب الركامية التي تصاحب التيارات الهوائية الرأسية ، وهناك السحب الطبقية التي تصاحب انسياب طبقة من الهواء بأكملها في اتجاه صاعد . ومن الأولى تنزل الرخات ومن الثانية يهطل المطر .

والمحيطات هي الوسط الذي يستجيب إلى الرياح ودوراتها ، كما أنها تكون مصادر بخار الماء الرئيسية ، ولهذا نجد أن العلاقة بين الجو والتيارات المائية من أهم الدراسات ، فإن هذه العلاقة تحدد المواسم والبقاع التي تزداد فيها عمليات التبخير ، كما أن التبادل الحراري بين الجو والمحيطات وتياراتها المائية من أهم العوامل التي تؤثر على المناخ .

وبعد .. فإنه لا يسعنا إلا أن نلهج بالثناء لخالق القوى والقدر الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، فانظر إلى السماء وارتفاعها والشمس وشعاعها والأرض واتساعها والبحار وأمواجها والجبال ورسوخها ، الكل يشهد بجلال الله ويقر بكماله ويهتف بشكره ولا يغفل عن ذكره ، ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾[1].

قوله تعالى : ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ﴾ :

الإحياء والإماتة من خصائص الألوهية ، والروح والرزق لايملكهما إلا الله ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾[2] ﴿ إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير ﴾[3] ﴿ إن الله له ملك السموات

(١) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٤٠ من سورة مريم .
(٣) الآية ٤٣ من سورة ق .

والأرض يحيي ويميت ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾[١] ، ﴿ سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم * له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾[٢].

إن من أسمائه الحسنى الباعث الوارث ، هو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، وسبحان من ينادى بعد فناء خلقه : لمن الملك اليوم ؟ فيجيب : لله الواحد القهار ، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

نبكي على الدنيا وما من معشر	جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكاسرة الجبابرة الألى	جمعوا الكنوز فما بقينا ولا بقوا
من ذا الذي ضاق الفضاء بجيشه	حتى ثوى فحواه لحد ضيق
خرس إذا نودوا كألم يعلموا	إن الكلام لهم حلال مطلق

قوله تعالى : ﴿ **ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين** ﴾

هذا إخبار منه جلت قدرته لأنه قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، ومما علمه تعالى الذين سبقونا إلى الدار الآخرة فهم مستقدمون ، والذين لم يموتوا بعد ، فعندما يأتي أجلهم يذهبون لا محالة .

لما رأيت موارد للموت ليس لها مصادر ، ورأيت قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر ، ولا يرجع الماضي إلىّ ولا من الباقين غابر ، أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر .

قوله تعالى : ﴿ **وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم** ﴾ .

لا مفر من لقاء الله ، فالعمر مهما طال فلابد من دخول القبر ، ﴿ فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر * ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر * بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره ﴾[٣].

فكيف تطمئن يا ابن آدم إلى دنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء .

ولي في فناء الخلق أكبر عبرة	لمن كان في بحر الحقيقة راقي
شخوص وأشكال تمر وتنقضي	فتفنى جميعاً والمهيمن باقي

إن مردنا إلى الله ، والبعث حق ، والحشر حق ، والحساب حق ، والصراط حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، إن الذي سنحشر إليه حكيم منزه عن العبث ، عليم لا يخفى

(١) الآية ١١٦ من سورة التوبة .
(٢) الآيات ١ – ٣ من سورة الحديد .
(٣) الآيات ٧ – ١٥ من سورة القيامة .

عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، يقول وقوله الحق : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾[١] ويقول : ﴿ إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم ﴾[٢].

قصة الإنسان والجن

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

المفـردات : ﴿ **صلصال** ﴾ : أى طين يابس يصلصل ويصوّت إذا نُقر ، وهو غير مطبوخ فإذا طبخ فهو فخار . ﴿ **حمإ** ﴾ : أى طين تغير واسود من مجاورة الماء له ، واحدته حمأة . و﴿ **مسنون** ﴾ : أى مصور مفرغ على هيئة الإنسان كالجواهر المذابة التي تصب في القوالب . ﴿ **والجان** ﴾ : أى هذا الجنس ، كما أن الإنسان يراد به ذلك ، فإذا أريد بالإنسان آدم أريد بالجان أبو الجن . و﴿ **نار السموم** ﴾ : هي النار الشديدة الحرارة التي تقتل وتنفذ في المسام . ﴿ **بشرا** ﴾ : أى إنساناً ، وسمي بذلك لظهور بشرته ، أي ظاهر جلده . ﴿ **سويته** ﴾ : أى أتممت خلقه وهيأته لنفخ الروح فيه . ﴿ **والنفخ** ﴾ : إجراء الريح من الفم أو غيره في تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها ، ويراد به هنا إضافة ما به الحياة على المادة القابلة لها . ﴿ **رجيم** ﴾ : أى مرجوم مطرود من كل خير وكرامة . ﴿ **اللعنة** ﴾ : الإبعاد على سبيل السخط . ﴿ **يوم الدين** ﴾ : أى يوم الجزاء . ﴿ **فأنظرني** ﴾ : أى أمهلني وأخرني ولا تمتني . ﴿ **يوم الوقت المعلوم** ﴾ : هو وقت النفخة الأولى حين

(١) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المؤمنون . (٢) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة الغاشية .

تموت الخلائق ، كما روي عن ابن عباس . ﴿ **الإغواء** ﴾ : الإضلال . ﴿ **هذا صراط عليّ** ﴾ : أى هذا صراط حق لابد أن أراعيه . ﴿ **مستقيم** ﴾ : أى لا انحراف فيه ، فلا يعدل عنه إلى غيره . ﴿ **والسلطان** ﴾ : التسلط والتصرف بالإغواء . ﴿ **سبعة أبواب** ﴾ : أى سبع طبقات . ﴿ **جزء مقسوم** ﴾ : أى فريق معين مفروز من غيره .

ورد في الصحيح : [خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم] [1] والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محتدة .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون** ﴾.

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له ، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً وعناداً واستكبار . وافتخاراً بالباطل ، ولهذا قال : ﴿ **لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون** ﴾ كقوله : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾[2].

قوله تعالى : ﴿ **قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين * قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم** ﴾.

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع بالخروج من الزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى ، وأنه رجيم أى مرجوم ، وأنه قد أتبعه لعنة لاتزال به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ **قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط علي مستقيم * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين * وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب : ﴿ **بما أغويتني** ﴾ قال بعضهم : أقسم بإغواء الله له ، ويحتمل أنه لسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿ **لأزينن لهم** ﴾ أى لذرية آدم عليه السلام ﴿ **في الأرض** ﴾ أى أحبب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها ، وأأزهم إليها وأزعجهم إليها إزعاجاً ،

---

(١) رواه أبو داود بنحو هذا اللفظ في الأدب (٣) . والإمام أحمد في ٤ : ٢٢٦ .

(٢) الآية ١٢ من سورة الأعراف .

﴿ **ولأغوينهم أجمعين** ﴾ أى كما أغويتني وقدّرت عليّ ذلك ﴿ **إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ كقوله : ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾[1].

قال الله تعالى متوعداً ومتهدداً :﴿ **هذا صراط على مستقيم** ﴾ :أى مرجعكم كلكم إليّ ، فأجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، كقوله تعالى : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾[2] وقيل طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى وإليه تنتهى .

وقوله تعالى : ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين** ﴾ : أى الذين قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم ﴿ **إلا من اتبعك من الغاوين** ﴾ إلا هنا استثناء منقطع بمعنى لكن . أى ولكن من اتبعك من الغاوين فأنت وشأنك بهم فقد استحبوا العمى على الهدى ، واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾[3] ، ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾[4] ، ﴿ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾[5].

وما أجمل هذا النصح العظيم ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون * هذه جهنم التى كنتم توعدون * اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ .[6]

وما أعظم هذا البيان الإلهي الكريم : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[7].

وما أكرم هذا التوجيه الرباني الرائع ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم ﴾[8] .

إن أقصى درجات الضلال أن يزين الشيطان للإنسان سوء عمله فيراه حسناً ، قال تعالى : ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾[9] .

ومن هنا يقول تعالى : ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾[10] ، ويقول : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾[11].

---

(١) الآية ٦٢ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ١٤ من سورة الفجر .
(٣) الآيات ١٢٤ – ١٢٧ من سورة طه .
(٤) الآية ٣٦ من سورة الزخرف .
(٥) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة الزخرف
(٦) الآيات ٦٠ – ٦٤ من سورة يس .
(٧) الآية ٦ من سورة فاطر .
(٨) الآية ٢١ من سورة النور .
(٩) الآية ٢٤ كم سورة النمل .
(١٠) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .
(١١) الآية ١٢١ من سورة الأنعام .

وإن الشيطان هو ذئب ابن آدم ، مثله في ذلك كذئب الغنم غادر ماكر ، قال تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾[١].

وما أروع هذا التصوير القرآني : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني برىء منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب ﴾[٢].

وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين * فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾[٣].

فاحذروا أيها العقلاء مكايد الشيطان ومصايده وشباكه وشراكه ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾[٤]. ولا تقنطوا من رحمة الله ولا تيئسوا من روح الله .

لقد قال إبليس لله جل جلاله وعزتك وجلالك لأغوينهم ، مادامت أرواحهم في أبدانهم ، فقال له رب العزة : وعزتي وجلالي لأغفرن لهم ماداموا يستغفرونني .

سـبحانك ربي

أنت الـذي تهـب الكثـير	وتجبر القلب الكسير وتغفـر الزلات
وتقـول هل من تائب مسـتغفر	أو سـائل أقضي له الحاجـات

فبادروا بالأعمال الصالحة سبعاً هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب فينظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر .

قوله تعالى : ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ :

هذا إخبار منه تعالى بمصير الغاوين ، وأن مصيرهم إلى جهنم ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذاألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾[٥].

وقال تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[٦].

---

(١) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم .
(٢) الآية ٤٨ من سورة الأنفال .
(٣) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الحشر .
(٤) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .
(٥) الآيتان ٦ — ١٢ من سورة الملك .
(٦) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

كما أخبر سبحانه إن لجهنم سبعة أبواب ، وإن لكل باب من هذه الأبواب نصيباً معلوماً من الأشقياء ، وذلك لأن جهنم كانت مرصاداً ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾[1].

إكرام المتقين

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

المفردات : ﴿ **المتقون** ﴾ : هم الذين اتقوا الكفر والفواحش ولهم ذنوب من الصغائر تكفرها الصلوات وغيرها ، ﴿ **جنات** ﴾ : أى بساتين ، ﴿ **وعيون** ﴾ : أى أنهار جارية ، ﴿ **بسلام** ﴾ : أى بسلامة من الآفات ، وأمن من المخافات ، و﴿ **الغل** ﴾ : الحقد الكامن في القلب ، و﴿ **السرر** ﴾ : واحدها سرير وهو مجلس رفيع مهيأ للسرور ، و﴿ **النصب** ﴾ : الإعياء والتعب .

المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه حال أهل الغواية ، وبين أنهم في نار جهنم يخلّدون فيها أبداً ، وأنهم يكونون في طبقات بعضها أسفل من بعض ، بمقدار ما اجترحوا من السيئات ، واقترفوا من المعاصى – أردفه ذكر حال أهل الجنة وما يتمتعون به من نعيم مقيم ، ووفاق بعضهم مع بعض لا ضغن بينهم ولا حقد ، وهم يتحدثون على سرر متقابلين ولا يجدون مس التعب والنصب ، ولا يخرجون منها أبداً .

اعلم بأن التقوى هي السلاح الأقوى ، والتقوى هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ، فمن اتقى الله خافه ومن خاف الله عرفه ، ومن عرف الله أطاعه ومن أطاع الله ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً ﴾[2] .

قال تعالى : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾[3] وقال : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب ﴾[4].

(١) الآية ٣٧ من سورة فاطر .
(٢) الآيتان ٦٩ ، ٧٠ من سورة النساء .
(٣) الآية ٢٦ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عرياناً ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

ولقد أعد الله لعباده المتقين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ إن المتقين في ظلال وعيون * وفواكه مما يشتهون * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾[١] ، ﴿ إن المتقين في جنات وعيون * آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾[٢] ، ﴿ إن المتقين في جنات ونعيم * فاكهين بما أتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾[٣]، ﴿ متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين * والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين * وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون * يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم * ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون * وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين * فمنَّ الله علنيا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾[٧] .

﴿ إن المتقين في مقام أمين * في جنات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين * كذلك وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين * لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم * فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾[٥]

﴿ إن المتقين في جنات ونهر * في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[٦] ﴿ إن للمتقين مفازاً * حدائق وأعناباً * وكواعب أترابا * وكأساً دهاقاً * لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا * جزاء من ربك عطاء حسابا ﴾[٧].

قوله تعالى : ﴿ **ادخلوها بسلام آمنين** ﴾ أى من كل خوف وفزع ، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء ﴿ **بسلام** ﴾ أى سالمين من الآفات ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً ﴾[٨] فهل بعد السلامة والأمن من شيء يقال ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[٩].

إن الله تعالى قدم نعمة الأمن على نعمة الرزق الرغد قال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ﴾[١٠].

ما قيمة الحياة إذا خلت من الأمن إنها إذا كانت كذلك صارت فزعاً وقلقاً واضطراباً وجحيماً وغصة وعذاباً ولن يكون هناك أمن بلا إيمان .

(١) الآيات ٤١ – ٤٤ من سورة المرسلات .
(٢) الآيات ١٥ – ١٩ من سورة الذاريات .
(٣) الآيات ١٧ – ١٩ من سورة الطور .
(٤) الآيات ٢٠ – ٢٨ من سورة الطور .
(٥) الآيات ٥١ – ٥٦ من سورة الدخان .
(٦) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ من سورة القمر .
(٧) الآيات ٣١ – ٣٦ من سورة النبأ .
(٨) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب .
(٩) الآية ٨٢ من سورة الأنعام .
(١٠) الآية ١٢٢ من سورة النحل .

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحي دينا
ومن رضى الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قرينا

قوله تعالى : ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين** ﴾

روى القاسم عن أبي أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل ثم قرأ ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل** ﴾.

وعن أبي أمامة قال : لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما في صدره من غل حتى ينزع منه مثل السبع الضاري .

وهذا موافق لما في الصحيح من رواية قتادة حدثنا أبو المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري حدثهم أن رسول الله ﷺ قال : (يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة)[١].

﴿ **إخواناً على سرر متقابلين** ﴾ : أى ينظر بعضهم إلى بعض ليسوا متدابرين ، إنما إخوة في الله ، ومستقر في رحمة الله . ﴿ **لا يمسهم فيها نصب** ﴾ يعني المشقة والأذى ، كما جاء في الصحيحين : (إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب)[٢] . وقوله : ﴿ **وما هم منها بمخرجين** ﴾ كما جاء في الحديث : (يقال ياأهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً)[٣] . وقال تعالى : ﴿ **خالدين فيها لا يبغون عنها حولا** ﴾[٤].

وعد ووعيد وقصص

* نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ

---

(١) أخرجه البخارى فى المظالم (١) ومسلم فى الإيمان (٣٠٢) .

(٢) أخرجه البخارى في النكاح : ١٠٨ ، وفي العمرة : ١١ ، وفي مناقب الأنصار : ٢٠ ، وفي الأدب : ٢٣ ، وفي التوحيد : ٣٢ ، ٣٥ . ومسلم في فضائل الصحابة : ٧١ – ٧٤ . وابن ماجه في النكاح : ٥٦ . وللإمام أحمد في : ٢ : ٢٣١ . وفي ٦ : ٥٨ ، ٢٠٢ .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة : ٢٢ . والترمذي في التفسير (سورة ٣٩ : ٩) . والدارمي في الرقاق : ١٠٣ . والإمام أحمد في : ٢ : ٣١٩ ، وفي ٣ : ٣٨ ، ٩٥ .

(٤) الآية ١٠٨ من سورة الكهف .

تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَـٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

المفـــردات : ﴿ **نبيء** ﴾ : تقول أنبأت القوم إنباء ونبّأتهم تنبئة : إذا أخبرتهم ، والأفصح في الضيف : ألا تثنى ولا تجمع حين تستعمل للمثنى والجمع والمؤنث بل تستعمل بلفظ واحد لكل ذلك ، ﴿ **والوجل** ﴾ : اضطراب النفس لخوفها من توقع مكروه يصيبها ، ﴿ **عليم** ﴾ : أى ذي علم كثير ، ﴿ **بالحق** ﴾ : أى بالأمر المحقق الذي لاشك في وقوعه ، ﴿ **وقنط من كذا** ﴾ : أى يئس من حصوله ، ﴿ **والضالون** ﴾ : الكفار الذين لا يعرفون كمال قدرته تعالى وسعة رحمته ، ﴿ **وخطبكم** ﴾ : أى أمركم وشأنكم الذي لأجله أرسلتم ، ﴿ **قدرنا** ﴾ : أى قضينا وكتبنا ، يقال قضى الله عليه كذا وقدره عليه ، أى جعله على مقدار الكفاية فى الخير والشر ، وقدر الله الأقوات : جعلها على مقدار الحاجة ، ﴿ **والغابرين** ﴾ : أى الباقين مع الكفار ليهلكوا معهم ، وأصله من الغبرة وهى بقية اللبن فى الضرع ، ﴿ **منكرون** ﴾ : أى لا أعرفكم ولا أعرف من أى الأقوام أنتم ؟ ولأى غرض دخلتم علىّ ؟ ﴿ **ويمترون** ﴾ : أى يشكون ويكذبون به ، ﴿ **فأسر**

بأهلك ﴾ : أى اذهب بهم ليلاً ، ﴿ **والقطع من الليل** ﴾ : الطائفة منه ، ﴿ **اتبع أدبارهم** ﴾ : أى كن على إثرهم لتسرع بهم وتطلع على أحوالهم ، ﴿ **وقضينا** ﴾ : أى أوحينا ، ﴿ **ودابر** ﴾ : آخر ، ﴿ **ومقطوع** ﴾ : أى مهلك مستأصل ، ﴿ **مصبحين** ﴾ : أى في وقت الصباح ، ﴿ **والمدينة** ﴾ : هي سذوم (بالذال المعجمة) مدينة قوم لوط ، ﴿ **والاستبشار** ﴾ : إظهار السرور ، ﴿ **والفضيحة** ﴾ : إظهار ما يوجب العار ، ﴿ **والخزى** ﴾ : الذل والهوان ، ﴿ **والعَمْر والعُمْر** ﴾ : (بالفتح والضم) : الحياة ، وهو حين القسم بالفتح لاغير ، ﴿ **سكرتهم** ﴾ : غوايتهم ، ﴿ **يعمهون** ﴾ : أى يتحيرون ، ﴿ **والصيحة** ﴾ : الصاعقة ، وكل سقى وأهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة أخرجه ابن المنذر عن ابن جرير ، ﴿ **ومشرقين** ﴾ : أى داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس ، ﴿ **والسجيل** ﴾ : الطين المتحجر ، ﴿ **للمتوسمين** ﴾ : أى المتفرسين الذين ينبئون في نظرهم ليعرفوا سمة الشيء وعلامته ، يقال توسمت في فلان خيراً : أى ظهرت منه علاماته ، ﴿ **لبسبيل مقيم** ﴾ : أى لبطريق واضح مُعلم ليس بخفي ولازائل ، ﴿ **أصحاب الأيكة** ﴾ : قوم شعيب عليه السلام ، ﴿ **والأيكة** ﴾ : الغيضة ، وهي الشجر الملتف بعضه على بعض وقد كانوا في مكان كثير الأشجار كثيف الغبار ، ﴿ **لبإمام مبين** ﴾ : أى لبطريق واضح وأصل الإمام مايؤتم به سمي به الطريق لأنه يؤتم ويتبع ، ﴿ **وأصحاب الحجر** ﴾ : هم ثمودٍ ، ﴿ **والحجر** ﴾ : واد بين المدينة والشام وكانوا يسكنون ، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة حجراً ومنه حجر الكعبة ، ﴿ **وآياتنا** ﴾ : هي الناقة وفيها آيات كثيرة كعظم خلقها ، وكثرة لبنها وكثرة شربها ، والإمام مايؤتم به ومن جملة ذلك الطريق التي تُسلك .

المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه ما أوعد به أهل الغواية في يوم القيامة من دخول جهنم ، وذكر أنها دركات لأولئك الغاوين بحسب اختلاف أحوالهم بمقدار ما دنسوا به أنفسهم من اتخاذ الأنداد والشركاء وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ثم أعقبه بذكر ما أعد لعباده المؤمنين من الجنات والعيون والنعيم المقيم والراحة التي لانصب بعدها ولا تعب ، وجلوس بعضهم مع بعض يتجاذبون أطراف الحديث وهم في سرور وحبور على سرر متقابلين أردف ذلك بخلاصة لما سبق ، فأمر نبيه أن يبلغ عباده أنه غفار لذنوب من تابوا وأنابوا إلى ربهم ، وأن عذابه مؤلم لمن أصروا على المعاصي ولم يتوبوا منها .

ثم فصل ذلك الوعد والوعيد فذكر البشارة لإبراهيم بغلام عليم ، وذكر إهلاك قوم لوط بما اجترحوا من كبرى الموبقات ، وفظيع الجنايات ، بفعلهم فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، حتى صاروا كأمس الدابر ، وأصبحوا أثرا بعد عين ، وإهلاك أصحاب الأيكة قوم شعيب جزاء ظلمهم بشركهم بالله ونقصهم للمكاييل والموازين ، فانتقم الله منهم بعذاب يوم الظلة ، وإهلاك أصحاب الحجر وهم ثمود الذين كذبوا صالحاً وكانوا ذوى حول وطول وغنى ومال ، وقوة وبطش ، فأعرضوا عن آيات

ربهم حينما جاءتهم على يدى رسوله ، فأخذتهم الصيحة وقت الصباح ولم يغن عنهم مالهم من دون الله شيئاً حين جاء أمره .

قوله تعالى : ﴿ **نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم** ﴾ :

ذكر في سبب نزولها ماروواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال : مرّ رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال : (اذكروا الجنة واذكروا النار) فنزلت الآية . (رواه ابن أبى حاتم وهو مرسل) .

وقال سعيد عن قتادة : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : (لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبخع نفسه) .

وهكذا حال المؤمن دائرة بين الخوف والرجاء ، وبين نور الوعد ونيران الوعيد ، حتى يقوم الوزن بالقسط ، وتقف النفس على حقيقة الاعتدال فالخوف دائماً يذكرها بما بعد الموت من حساب وأهوال . والرجاءيفتح لها أبواب رحمة الله التي وسعت كل شيء . وميزان الإسلام عادل مستقيم لا تهويل ولا تهوين ولا إفراط ولا تفريط .. لا غلو ولا انحلال ولا تنطع ولا تحلل . قال جلّ شأنه : ﴿ وإن ربَّك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإنَّ ربك لشديد العقاب ﴾[1] وقال : ﴿ إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾[2].

وقوله تعالى : ﴿ **وأن عذابى هو العذاب الأليم** ﴾ :

هذا جانب الوعيد بعد الوعد وجانب الخوف بعد الرجاء حتى لا يغتر العبد بكرم ربه فيقال له : ﴿ يأيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم ﴾[3] .

وحتى لا يتمنى على الله الأماني فيقال له : « ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل وإن قوماً غرتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله وكذبوا . لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

قوله تعالى : ﴿ **ونبئهم عن ضيف إبراهيم * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون * قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم * قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون * قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين * قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون** ﴾ .

فى هذا المشهد القرآنى الكريم يأمر الله الرسول ﷺ أن ينبىء أمته ويخبرهم عن ضيف إبراهيم عندما دخلوا عليه وألقوا السلام ، فردَّ عليهم كما جاء ذلك فى سورة هود .

قال تعالى : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام ﴾[4].

وهنا قال تعالى : ﴿ **إنا منكم وجلون** ﴾ أى خائفون . وقد جاء تفسير ذلك في سورة هود .

---

(١) الآية ٦ من سورة الرعد .
(٢) الآية ٤٣ من سورة فصلت .
(٣) الآية ٦ من سورة الانفطار .
(٤) الآية ٦٩ من سورة هود .

قال جلَّ شأنه : ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ * فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف ﴾[٦] وهنا يقول تعالى : ﴿ **قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم** ﴾ وكان ذلك الغلام إسحاق ، كما جاء بيان ذلك في سورة هود . قال تعالى : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ﴾[١].

قوله تعالى : ﴿ **قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون** ﴾ .

أى . أيولد لى غلام وقد بلغت من الكبر عتيا ، فجاء الرد . قالوا : ﴿ **بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين** ﴾ والمراد بالحق : الأمر الثابت المتحقق الوقوع الذي لا مراء فيه ﴿ **فلا تكن من القانطين** ﴾ أى اليائسين .

﴿ **قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون** ﴾ وحاشا أن يقنط المؤمن من رحمة الله . وقد جاء في سورة هود ، قوله تعالى : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . قالت ياويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت * إنه حميد مجيد ﴾[٢].

قوله تعالى : ﴿ **قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين * إلا امرأته قدَّرنا إنها لمن الغابرين** ﴾

لما سمع إبراهيم البشرى من ضيفه المكرمين وكانوا من ملائكة الرحمن وذهب عنه الروع ، سألهم : ما خطبكم ؟ وما شأنكم ؟ وهل كان مجيئكم خاصاً بتلك البشرى ؟ أخبروه بأنهم قد أرسلوا إلى قوم مجرمين ، وهم قوم لوط . وأن الله تعالى سيهلكهم وسينجي آل لوط إلا امرأته فإنها باقية في العذاب . قال تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية * إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾[٣]

قوله تعالى : ﴿ **فلما جاء آل لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وأتيناك بالحق وإنا لصادقون** ﴾ .

وهكذا ينتقل الحديث بنا إلى لوط وقومه : لقد ذهبت الملائكة إلى لوط فأنكرهم إذ لم يسبق له بهم عهد ، ولم يرهم من قبل بهيئتهم تلك قال : إنكم قوم منكرون ، قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون أى يشكون ويترددون . وسواء أكان هذا الذي يمترون فيه هو الحق الذي بعثت به الرسل أم العذاب النازل بهم عما قليل .

﴿ **وأتيناك بالحق وإنا لصادقون** ﴾ : والملائكة لاتتنزل إلا بالحق . قال تعالى : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾[٤] . وقولهم ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ أى فيما وعدناك به من نجاتك ونجاة أهلك .

(١) الآية ٥٣ من سورة الحجر .
(٢) الآيات ٧١ – ٧٢ من سورة هود .
(٣) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة العنكبوت .
(٤) الآية ٨ من سورة الحجر .

قوله تعالى : ﴿ **فأسر بأهلك بقطع من الليل واتّبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون * وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين** ﴾ :

هذا أمر من الله تعالى لنبيه لوط أن يسير بأهله بجزء من الليل ، وأن يسير وراءهم حتى يرعى شئونهم ، وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ في الغزو ، كما نهاهم عن أن يلتفت منهم أحد إذا سمعوا صيحة العذاب قد حلّت بالقوم ، كما أمرهم أن يمضوا في سيرهم حيث يؤمرون ، وقضى إليه ذلك الأمر وأنهاه إلى علمه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ، وأن عذاب الاستئصال لن يبقى منهم ولن يذر كما قال تعالى : ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾[1].

وقوله تعالى : ﴿ **وجاء أهل المدينة يستبشرون * قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تخزون * قالوا أو لم ننهك عن العالمين * قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ :

لما علم قوم لوط بأن عنده ضيفاً جاءوا يستبشرون فرحين ، فقد رأوا فيهم جمال الخلق ووضاءة الوجوه . وأراد لوط أن يحمي الضيف من عبث هؤلاء المجرمين فقال لهم : ﴿ **إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون** ﴾ فإن إكرام الضيف واجب ، وليس من إكرامه أن يُساء إليه ، فالكرم من شيم الرجال ، والإساءة من خصال اللئام . قال تعالى : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ﴾[2] .

قال لهم لوط : ﴿ **اتقوا الله ولا تخزون** ﴾ أى ﴿ ولا تخزون في ضيفى أليس منكم رجل رشيد ﴾[3] وهنا يقول لهم : ﴿ **اتقوا الله** ﴾ ليثير في أنفسهم كوامن النخوة والمروءة وشهامة الرجال ، لكنهم كانوا لئاماً لا يرقبون إلاًّ ولا ذمة ولا يُراعون ضيفاً ولا جاراً : ﴿ **قالوا أولم ننهك عن العالمين** ﴾ ، ﴿ **قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ .

يخبر تعالى بأن قوم لوط أجابوه قائلين ﴿ **أولم ننهك عن العالمين** ﴾ أى أوما نهيناك أن تضيف أحداً ؟ فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة ، وهذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء وماذا يصبحهم من العذاب المستقر ولهذا قال تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض .

عن ابن عباس أنه قال : (ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره) .

قال تعالى : ﴿ **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ يقول : وحياتك وعمرك وبقائك فى الدنيا ﴿ **إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ رواه ابن جرير .

---

(١) الآيات ٨١ – ٨٢ من سورة هود . (٢) الآية ٣٧ من سورة القمر . (٣) الآية ٧٨ من سورة هود .

وقال قتادة : ﴿ في سكرتهم ﴾ أى في ضلالتهم ، ﴿ يعمهون ﴾ أى يلعبون وقيل يترددون .

قوله تعالى : ﴿ **فأخذتهم الصيحة مشرقين * فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل * إن في ذلك لآيات للمتوسمين * وإنها لبسبيل مقيم * إن في ذلك لآية للمؤمنين** ﴾ :

يقول تعالى : ﴿ **فأخذتهم الصيحة** ﴾ : وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها ، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبها وجعل عاليها سافلها وإرسال حجارة السجيل عليهم وهو الطين المتحجر .

قوله : ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ : أى إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته ، كما قال مجاهد في قوله ﴿ **للمتوسمين** ﴾ قال المتفرسين . وعن ابن عباس والضحاك : للناظرين .

وقال قتادة : للمعتبرين . وقال مالك عن بعض أهل المدينة : ﴿ **للمتوسمين** ﴾ للمتأملين .

عن أبي سعيد مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)[1] ثم قرأ النبي ﷺ ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ رواه الترمذي .

وعن أنس بن مالك قال : قال النبي ﷺ : (إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم) .

قوله تعالى : ﴿ **وإنها لبسبيل مقيم** ﴾ أى وإن قرية سذوم التي أصابها ماأصابها من القلب الصوري والمعنوى والقذف بالحجارة حتى صارت بحيزة منتنة خبيثة بطريق مهيع مسالكه مستمرة إلى اليوم كقوله : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون * وإن يونس لمن المرسلين ﴾[2].

وقال مجاهد والضحاك : ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ قال معلم . وقال قتادة : بطريق واضح ، وقال قتادة أيضاً : بصقع من الأرض واحد . وقال السدي : بكتاب مبين معنى كقوله : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾[3].

قوله : ﴿ **إن فى ذلك لآية للمؤمنين** ﴾ : أى إن ما وقع بقوم لوط من العذاب حيث جعلنا عاليها سافلها لآية بيّنة وعبرة واضحة لكل مؤمن مصدق بما أنزل الله على رسوله ، كما أن في إنجائنا لوطاً ومن آمن به آية بينة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

قوله تعالى : ﴿ **وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين** ﴾ : المقصود بأصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام . قال تعالى : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيب ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾[4].

وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان ، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة ، وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم في الزمان ومسامتين لهم في المكان .

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ١٥ : ٦ .

(٢) الآيات ١٣٧ - ١٣٩ من سورة الصافات .

(٣) الآية ١٢ من سورة يس .

(٤) الآيات ١٧٦ - ١٨٠ من سورة الشعراء .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **وإنهما لبإمام مبين** ﴾ : أى طريق مبين قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيره : طريق ظاهر . ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾(١).

قوله تعالى : ﴿ **ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين * وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين * فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾ : أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحاً نبيهم عليه السلام من كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين ، لأن الأنبياء جميعا عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾(٢) .

ولذلك فقد أفرد الله تعالى الأنبياء في لفظ رسول فى قوله جل شأنه : ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة.فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾(٣)ومن كلامه ﷺ « أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى لا إله إلا الله »(٤) .

جاء في سورة الشعراء : ﴿ كذبت ثمود المرسلين.إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾(٥).

قال تعالى في سورة الحجر : ﴿ **وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين** ﴾ : وهذه الآيات معجزات خارقةٌ للعادة تدل على صدق من ظهرت على يديه من الأنبياء ، مع عجز جميع الخلق عن الإتيان بمثلها ، وقد كانت معجزة صالح الناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء ، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، فلما عتوا وعقروها قال لهم : ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾(٦).

وقال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾(٧). وذكر تعالى أنهم : ﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ﴾ أى من غير خوف ولا احتياج إليها ، بل أشراً وبطراً وعبثاً كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك ، فقنع رأسه وأسرع دابته ، وقال لأصحابه : (لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم)(٨).

وقوله : ﴿ **فأخذتهم الصيحة مصبحين** ﴾ : أى وقت الصباح من اليوم الرابع . ﴿ **فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾ : أى ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في الحياة فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعهم لما جاء أمر ربك .

---

(١) الآية ٨٩ من سورة هود .
(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .
(٣) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الحاقة .
(٤) الحديث أخرجه الإمام مالك في القرآن : ٣٢ . وفي الحج : ٢٤٦ .
(٥) الآيات ١٤١ - ١٤٥ من سورة الشعراء .
(٦) الآية ٦٥ من سورة هود .
(٧) الآية ١٧ من سورة فصلت .
(٨) أخرجه ابن ماجه في الإقامة : ١٧٦ . وفي الزهد : ١٩ .

عقائد وتوجيهات

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

المفردات : ﴿ **بالحق** ﴾ : بالحكمة والمصلحة . ﴿ **الصفح الجميل** ﴾ : ترك التثريب واللوم . ﴿ **المثانى** ﴾ : واحدها مثنى من التثنية وهو التكرير والإعادة . ﴿ **ومد عينيه إلى مال فلان** ﴾ : اشتهاه وتمناه . ﴿ **الأزواج** ﴾ : واحدها زوج وهو الصنف . ﴿ **وخفض الجناح** ﴾ : يراد به التواضع وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه بسط جناحه له والجناحان من الإنسان : جانباه . ﴿ **والنذير** ﴾ : المخوف بعقاب الله من لم يؤمن به . ﴿ **وعضين** ﴾ : أى أجزاء واحدها عضة من عضيت الشاة جعلتها أعضاء وأقساماً . ﴿ **فاصدع بما تؤمر** ﴾ : أى اجهر به من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً يضيق صدرك : أىْ ينقبض من الحسرة والحزن . ﴿ **والساجدين** ﴾ : أى المصلين . ﴿ **اليقين** ﴾ : الموت وسمى به لأنه أمر متيقن لاشك فيه .

المناسبة

بعد أن ذكر في القصص السالف إهلاك الأمم المكذبة لرسلها وعذابها بشتى أنواع العذاب كفاء ما دنسوا به أنفسهم من فظائع الشرك وأنواع المعاصي التي تقوض دعائم الإخلاص لبارىء النسم وتهد أركان نظم المجتمع ، بعبادة الأصنام والأوثان ، وتطفيف الكيل والميزان ، وإتيان الفاحشة التي تشمئز منها النفوس ، وتنفر منها الأذواق السليمة ، أرشد هنا إلى أنهم بعملهم هذا قد تركوا ماقضت به الحكمة والمصلحة من خلق السموات والأرض لعبادة خالقها وطاعة واستقرار نظم المجتمع على وجه صالح صحيح ودأبوا على عبادة غيره من الأصنام والأوثان فكان من العدل تطهير الأرض منهم دفعاً لشرورهم وإصلاحاً لمن يأتي بعدهم .

قوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق** ﴾ : أي بالحكمة والعدل . ما خلقناهما عبثاً ولا ظلماً ولا باطلاً .

قال تعالى : ﴿ ولله مافي السموات وما في الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾(١) وقال : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾(٢) ، وقال جل شأنه : ﴿ وماخلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين * بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾(٣) وقال عظمت حكمته : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ **وإن الساعة لآتية** ﴾ : الساعة من أسماء القيامة ، قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(٥).

وقال : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾(٦) وقال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها * كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾(٧).

ثم يأمر الله تعالى حبيبه ومصطفاه بالصفح الجميل الذي لا شكوى فيه ، كما أمره بالصبر الجميل في قوله جل شأنه : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة*فاصبر صبراً جميلاً ﴾(٨)
كما أمره بالهجر الجميل فى قوله : ﴿ واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴾(٩) .

وهكذا دعوة الإسلام صفح جميل وصبر جميل وهجر جميل ، وقد صدق الله إذ يقول لمبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾(١٠).

قوله تعالى : ﴿ **إن ربك هو الخلاق العليم** ﴾ : أى الذي لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً فهو مبدع الكائنات وموجد الخلائق فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقلت له من خالقك لأجابك بلسان الحال والمقال أنا مخلوق للواحد الديان . إن الذي خلق السموات والأرض بالحق قادر على إحياء الموتى عند قيام الساعة .

---

(١) الآية ٣١ من سورة النجم .
(٢) الآية ٢٧ من سورة ص .
(٣) الآيات ١٦ – ١٨ من سورة الأنبياء .
(٤) الآيتان ١١٥ ، ١١٦ من سورة المؤمنون .
(٥) الآية ١٨٧ من سورة الأعراف .
(٦) الآية الأولى من سورة الحج .
(٧) الآيات ٤٢ – ٤٦ من سورة النازعات .
(٨) الآيات ١ – ٤ من سورة المعارج .
(٩) الآية ١٠ من سورة المزمل .
(١٠) الآية ٤ من سورة القلم .

قال تعالى : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾[١].

قال تعالى : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾[٢].

قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم * لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين** ﴾ :

بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يصبر على أذى قومه وأن يصفح عنهم الصفح الجميل ، أردف ذلك ذكر ما أولاه من النعم وما أغدق عليه من الإحسان ليسهل عليه الصفح ويكون فيه سلوة على احتمال الأذى فذكر أنه آتاه السبع المثانى (الفاتحة) والقرآن العظيم الجامع لما فيه هدى البشر وصلاحهم في دنياهم وآخرتهم .

وبعد أن ذكر له مظاهر نعمه عليه نهاه عن الرغبة في الدنيا ومد العينين إليها يتمنى مافيها من متاع ونهاه عن الحسرة على الكفار إن لم يؤمنوا بالقرآن وبما جاء به وأمره بالتواضع لفقراء المسلمين وبإنذار قومه المشركين بتبليغهم ما أمر به الدين وما نهى عنه بالبيان الكافي والإعزار الشافي وبيان عاقبة أمرهم بتحذيرهم أن يحل بهم ما حل بالمقتسمين (اليهود والنصارى) الذين جعلوا القرآن آفاقاً فآمنوا بما وافق التوراة وكفروا بما عدا ذلك ويبين لهم أن ربهم سيسألهم عن جريرة أعمالهم ثم أمره أن يعلن ما أمر به من الشرائع ولا يلتفت إلى لوم المشركين وتثريبهم له ولا يبال بما سيكون منهم .

فالله تعالى كفاه أمر المستهزئين به وأزال كيدهم ، وإذا ساوره ضيق الصدر من سماع سفههم واستهزائهم كما هو دأب البشر فليسبح ربه وليحمده وليكثر له الطاعة .

فالعبد إذا حزنه أمر فزع إلى طاعة ربه ، وقد تكفل سبحانه أن يكشف عنه ما أهمه .

المراد بالسبع المثانى سورة الفاتحة ، وهي سبع آيات وروى ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عباس . قال ابن عباس والبسملة هي الآية السابعة ، وقد خصكم الله بها وبه قال إبراهيم النخعي والحسن البصري وقتادة ومجاهد .

وقال قتادة : ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب ، وأنهن يثنين في كل ركعة مكتوبة أو تطوع .

روى البخاري بسنده عن أبي سعيد بن المعلى قال مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي فدعاني فلم آته حتى صليت فأتيته فقال : (ما منعك أن تأتيني) فقلت : كنت أصلي فقال : (ألم يقل الله : ﴿ **يا أيها الذين**

(١) الآيات ٧٧ - ٨٣ من سورة يس .

(٢) الآية ٤ من سورة ق .

آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ﴾ : ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد) .

فذهب النبى ﷺ ليخرج فذكرت فقال : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته [١] .

وقد عطف القرآن العظيم على السبع المثانى من باب عطف العام على الخاص كما فى قوله تعالى ﴿ وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ .

قوله تعالى : **﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾** : أى استعن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية ، ومن هنا ذهب ابن عيينه إلى تفسير الحديث الصحيح (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)[٢] إلى أنه يستغنى به عما عداه

قال ابن عباس **﴿ لا تمدن عينيك ﴾** قال نهى الرجل أن يتمنى مالصاحبه وقال مجاهد **﴿ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾** هم الأغنياء .

وقوله **﴿ ولاتحزن عليهم ﴾** : أى لا تذهب نفسك عليهم حسرات فإنما عليك البلاغ إن أنت إلا نذير **﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾** : أى ألن جانبك لمن اتبعك من المؤمنين ﴿ فبما رحمة من الله لِنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ﴾[٣] .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[٤] .

﴿ وقل إنى أنا النذير المبين ﴾ : يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس **﴿ إنى أنا النذير المبين ﴾** : البين النذارة نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم فى تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام .

وقوله : **﴿ كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين ﴾** .

أى ولقد آتيناك سبعاً من المثانى كما آتينا من قبلك من اليهود والنصارى التوراة والانجيل وهم الذين اقتسموا القرآن وجزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه الذى وافق كتابيهما وكفروا ببعضه وهو ما خالفهما .

وبعد أن بين وظيفة الرسول ﷺ ذكر أن الحساب على الأعمال موكول إلى الله لا إليه فقال : **﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون ﴾** : أى فلنسألن الكفار جميعاً سؤال تأنيب وتوبيخ لهم على ما كانوا يقولون ويفعلون فيما بعثناك به إليهم وفيما دعوناهم إليه من الإقرار بى وبتوحيدى

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١ : ١ ، في تفسير سورة ١٥ : ٣ . وفي فضائل القرآن : ٩ . والترمذي في ثواب القرآن : ١ . والنسائي في الافتتاح : ٢٦ . والإمام مالك في النداء : ٣٧ . والإمام أحمد في ٤ : ٢١١ ، وفي ٥ : ١١٤ .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد : ٤٤ . وأبو داود في الوتر : ٢٠ . والدارمي في الصلاة : ١٧١ ، وفي فضائل القرآن : ٣٤ . والإمام أحمد في ١ : ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ .

(٣) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .

(٤) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

والبراءة من الأنداد والأوثان روى أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية فى تفسير الآية يسأل الله العباد كلهم عن خَلتين يوم القيامة عما كانوا يعبدون وعماذا أجابوا المرسلين .

وعن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ (يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه . وعن فتات الطينة بأصبعه فلا ألفينّك يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك) .

وبعد أن ذكر أن وظيفته التبليغ شدد عليه فى الجهر به جهد المستطاع فقال : ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ﴾ : أى فاجهر بإبلاغ ما أمرت به من الشرائع وواجه به المشركين ولا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم ولا تخفهم فإن الله كافيك وحافظك منهم .

ولما كان هذا الصراع شديداً عليه لكثرة ما يلاقيه من أذى المشركين ذكر أنه حارسه وكالئه منهم فلا يخشى بأسهم فقال : ﴿ **إنا كفيناك المستهزئين** ﴾ : أى إنا كفيناك شر المستهزئين الذين كانوا يسخرون منك ومن القرآن وهم طائفة من المشركين لهم قوة وشوكة كانوا كثيرى السفاهة والأذى لرسول الله ﷺ حين يرونه أو يمر بهم أفناهم الله وأبادهم وأزال كيدهم .

وقد اختلف فى عدتهم فقوم يقولون هم خمسة : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدى بن قيس ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن عبد المطلب . وقد ماتوا جميعاً بأهون الأسباب فتعلق بثوب الوليد سهم فتكبر أن يبعده عنه فأصاب عرقاً فى عقبه فمات .

ومات العاص بشوكة فى إخمص قدمه وأصاب عدى بن قيس مرض فى أنفه فمات وأصيب الأسود ابن عبد يغوث بداء وهو قاعد فى أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات . وعمى الأسود بن عبد المطلب . وقوم يقولون هم سبعة من أشراف قريش ومشركيها .

ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال : ﴿ **الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر** ﴾ : أى هم الذين اتخذوا إلهاً آخر مع الله يعبدونه وفى وصفهم بهذا الوصف تسلية لرسوله ﷺ وتهوين للخطب عليه إذ أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء بمقام النبوة بل تعدوه إلى الاشراك بربهم المدبر لأمورهم والمحسن إليهم .

ثم توعدهم على ما كانوا يصنعون فقال : ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ : عاقبة أمرهم حين يحل بهم عذاب ربهم يوم تجزى كل نفس بما علمت يوم ﴿ تذهل كل مرضعة عما أُرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[1] .

وبعد أن سلاه بكفاية شرهم ودفع مكرهم ذكر تسليه أخرى له فقال : ﴿ **ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون** ﴾ : من كلمات الشرك والاستهزاء كما هو دأب الطبيعة البشرية حين ينوب الانسان ما يؤلمه ويحزنه أن يرى فى نفسه انقباضاً وضيقاً فى الصدر وأسى وحسرة على ما حل به .

---

(١) الآية ٢ من سورة الحج .

ثم أمره سبحانه بأن يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله وحمده فقال : ﴿ **فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ : أى إذا نزل بك الضيق ووجمت نفسك فافزع إلى ربك ونزهه عما يقولون ، حَامداً له على توفيقك للحق وهدايتك إلى سبيل الرشاد وصل آناء الليل وأطراف النهار فإن فى مناجاة ربك ما يقربك إلى حضرة القدس ويسمو بنفسك إلى الملأ الأعلى كما ورد فى الحديث : (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)[1] .

ودم على ما أنت عليه طالباً المزيد من فضله حتى يأتيك الموت فهناك الجزاء بلا عمل وهنا العمل ولا جزاء .

وقصارى ذلك : أنه تعالى أرشده إلى كشف ما يجده فى نفسه من الغم بفعل الطاعات والاكثار من العبادات وقد كان ﷺ إذا حزنه أمر أو اشتد عليه خطب فزع إلى الصلاة .

روى أحمد عن ابن عمار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : قال تعالى :«يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره »[2] .

وقد حكى الله عن أهل النار انهم يقولون ﴿ لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين ﴾[3] .

وفى هذا دلالة على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على المرء مادام ثابت العقل .

روى البخارى عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : (صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب)[4] .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة : ٢١٥ . والنسائي في المواقيت : ٣٥ ، وفي التطبيق : ٧٨ . والترمذي في الدعوات : ١١٨ . والإمام أحمد في ٢ : ٤٢١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ٥ : ٢٨٦ ، ٢٨٧ . وفي ٦ : ٤٤٠ ، ٤٥١ .

(٣) الآيات ٤٣ – ٤٧ من سورة المدثر .

(٤) أخرجه البخاري في التقصير : ١٩ .

سورة النحل

مقدمة

قال صاحب البصائر :

هذه السورة مكية ، إلا قوله ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا ﴾ إلى آخر السورة .

عدد آياتها مائة وثمانية وعشرون .

وكلماتها ألفان وثمانمائة وأربعون .

وحروفها سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف .

وسميت سورة النحل لما فيها من عجائب ذكر النحل .

معظم ماأشتملت عليه السورة :

تخويف العباد بمجيء القيامة ، وإقامة حجة الوحدانية ، وذكر ما فى الأنعام من المنافع والنعم ، وما فى المراكب من التجمل والزينة ، وذكر النبات والشجر وتسخير الشمس والقمر ، وتثبيت الأرض والجبال والحَجَر ، وهداية الكواكب فى السفر والحضر ، والنعم الزائدة عن العد والإحصاء .

والإنكار على أهل الإنكار ، وجزاء مكر المُكَار ، ولعنة الملائكة على الاشرار ، عند الاحتضار ، وسلامهم فى ذلك الوقت على الأبرار والأخيار .

وبيان أحوال الأنبياء والمرسلين مع الأمم الماضين ، وذكر الهجرة والمهاجرين ، وذكر التوحيد ، وتعريف المنعِم ، ونعمة السابغات ، ومذمة المشتركين بوأد البنات ، وبيان الأسماء والصفات .

والمنَّة على الخلائق بإنزال الرحمات ، وعدها من الإنعام فى باب الأنعام والحيوانات ، وبيان فوائد النحل ، وذكر ماشتمل عليه من عجيب الحالات ، وتفضيل الخلق فى باب الأرزاق والأقوات ، وبيان حال المؤمن والكافر ، وتسخير الطيور فى الجو صافّات ، والمِنَّة بالمساكن والصحارى والبَرِيَّات ، وشكاية المتكبرين .

وذكر ما أُعِدّ لهم من العقوبات ، والأمر بالعدل والإحسان ، والنهى عن نقض العهد والخيانات ، وأن الحياة الطيبة فى ضمن الطاعات ، وتعلم الاستعاذة بالله فى حال تلاوة الآيات المحكمات ورد سلطان الشيطان عن المؤمنين والمؤمنات ، وتبديل الآيات بالآيات ، لمصالح المسلمين والمسلمات ، والرخصة بالتكلم بكلمة الكفر عند الإكراه والضرورات ، وبيان التحريم والتحليل فى بعض الحالات .

وذكر إبراهيم الخليل ومامُنح من الدرجات ، وذكر السَّبَتِ والدعاء إلى سبيل الله بالحكمة والعظات الحسنات ، والأمر بالتسوية فى المكافآت بالعقوبات ، والأمر بالصبر على البليّات ، ووعد المتقين والمحسنين بأعظم المثوبات ، بقوله : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ .

المتشابهات

فيها فى موضعين ﴿ إن فى ذلك لآيات ﴾ : بالجمع . وفى خمسة مواضع ﴿ إن فى ذلك لآية ﴾ : على الوحدة . أما الجمع فلموافقة قوله : ﴿ مسخَّرات ﴾ : فى الآيتين لتقع المطابقة فى اللفظ والمعنى . وأمّا التوحيد فلتوحيد المدلول عليه .

من الخمس قوله : ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ : وليس له نظير . وخص بالذِّكر لاتصاله بقوله : ﴿ وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه ﴾ : فإن اختلاف ألوان الشىء وتغير أحواله يدل على صانع حكيم لا يشبهها ولا تشبهه ، فمن تأمل فيها اذَّكَّر .

ومن الخمس :﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يتفكَّرون ﴾ : فى موضعين ، وليس لهما نظير : وخُصّتا بالفكر ، لأن الأولى متصلة بقوله : ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ﴾ : وأكثرها للأكل ، وبه قوام البدن فيستدعى تفكيراً وتأملاً ، ليعرف به المنعم عليه فيشكره .

والثانية متصلة بذكر النحل ، وفيها أُعجوبة : من انقيادها لأميرها ، واتخّاذها البيوت على أشكال يعجز عنها الحاذق مِنّا ، ثم تَتَبُّعها الزهر والطلى من الأشجار ، ثم خروج ذلك من بطونها لعابا ، فاقتضى ذلك فكرا بليغا ، فختم فى الآيتين بالتفكير .

قوله : ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ : وفى الملائكة (فاطر) ﴿ وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا ﴾[1] .

فى هذه السورة جاء على القياس ، فإن ﴿ الفُلك ﴾ المفعول الأول لترى ، و﴿ مواخر ﴾ المفعول الثانى ، و﴿ فيه ﴾ ظرف ، وحقُّه التأخُّر . والواو فى ﴿ ولتبتغوا ﴾ للعطف على لام العلة فى قوله : ﴿ لتأكلوا منه ﴾ .

وأما فى الملائكة فقدّم ﴿ فيه ﴾ موافقة لما قبله ، وهو قوله : ﴿ لتأكلوا منه لحماً طريّا ﴾ فقدم الجار والمجرور ، على الفعل والفاعل ولم يزد الواو على ﴿ لتبتغوا ﴾ : لأن اللام فى (لتبتغوا) هنا لام العلة ، وليس يعطف على شىء قبله .

ثم إن قوله : ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾ و﴿ وفيه مواخر ﴾ اعتراض فى السورتين يجرى مجرى المثل ، ولهذا وَحّد الخطاب . وهو قوله : ﴿ وترى ﴾ وقبله وبعده جمع ، وهو قوله : ﴿ لتأكلوا ﴾ و﴿ تستخرجوا ﴾ و﴿ لتبتغوا ﴾ .

وفى الملائكة ﴿ تأكلون ﴾ و﴿ تستخرجون ﴾ ﴿ لتبتغوا ﴾ ومثله فى القرآن كثير ، منه ﴿ كمثل غيث أعجب الكفّار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ﴾[2] .

---

(١) الآية ١٢ من سورة فاطر .

(٢) الآية ٢٠ من سورة الحديد .

وكذلك ﴿ تراهم ركّعا سجّداً ﴾[1] ، ﴿ وترى الملائكة حافّين من حول العرش ﴾[2] وأمثاله .

أى لو حضرت أيها المخاطب لرأيته فى هذه الصفة ، كما تقول : أيها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل .

قوله : ﴿ **وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين** ﴾ : وبعده : ﴿ **وقيل للذين اتّقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً** ﴾ : إنما رفع الأول ، لانهم أنكروا إنزال القرآن ، فعدلوا عن الجواب ، فقالوا : أساطير الأولين . والثانى من كلام المتقين ، وهم مقِرُّون بالوحى والإنزال ، فقالوا : خيراً ، أى أنزل خيراً ، فيكون الجواب مطابقاً ، و﴿ **خيرا** ﴾ : نصْب بأنزل . وإن شئت جعلت ﴿ **خيرا** ﴾ : فمعول القول . أى : قالوا خيرا ولم يقولوا شرا كما قالت الكفّار . وإن شئت جعلت ﴿ **خيرا** ﴾ : صفة مصدر محذوف . أى قالوا قولا خيرا .

قوله : ﴿ **فلبئس مثوى المتكبرين** ﴾ : ليس فى القرآن نظيره للعطف بالفاء على التعقيب فى قوله : ﴿ **فادخلوا أبواب جهنم** ﴾ : واللام للتأكيد تجرى مجرى القسم موافقة لقوله : ﴿ **ولنعم دار المتقين** ﴾ : وليس له نظير ، وبينهما : ﴿ **ولدار الآخرة خير** ﴾ .

قوله : ﴿ **فأصابهم سيئات ما عملوا** ﴾ : هنا وفى الجاثية وفى غيرهما ﴿ **ما كسبوا** ﴾ : لأن العمل أعم من الكسب ، ولهذا قال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[3] .

وخُصّت هذه السورة ﴿ بالعمل ﴾ لموافقة ما قبله : ﴿ **ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون** ﴾ : ولموافقة ما بعده وهو قوله : ﴿ **وتوفى كل نفس ما عملت** ﴾ : ومثله : ﴿ ووفّيت كل نفس ما عملت ﴾ فى الزمر . وليس لها نظير .

قوله : ﴿ **ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون** ﴾ : ومثله فى الروم وفى العنكبوت : ﴿ وليتمتعوا فسوف يعلمون ﴾[4] باللام والياء . أما التاء فى السورتين فبإضمار القول أى قل لهم : تمتعوا ، كما فى قوله : ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾[5] وكذلك : ﴿ قل تمتّع بكفرك ﴾[6] .

وخصصت هذه السورة بالخطاب لقوله : ﴿ **إذا فريق منكم** ﴾ : وألحق ما فى الروم به . وأما ﴿ **ما** ﴾ : فى العنكبوت فعلى القياس ، عطف على اللام قبله وهى للغائب .

قوله : ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة** ﴾ : وفى الملائكة (فاطر) : ﴿ بما كسبوا ما ترك على ظهرها ﴾[7] الهاء فى هذه السورة كناية عن الأرض ولم يتقدم ذكرها . والعرب تجوّز ذلك فى كلمات منها الأرض ، تقول : فلان أفضل مَنْ عليها ، ومنها السماء ، تقول : فلان أكرم مَن تحتها ، ومنها الغداة (تقول) : إنها اليوم لباردة . ومنها الأصابع تقول : والذى شقّهن خمسا من واحدة ، يعنى الأصابع من اليد .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الفتح .
(٢) الآية ٧٥ من سورة الزمر .
(٣) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .
(٤) الآية ٦٦ من سورة العنكبوت .
(٥) الآية ٣٠ من سورة إبراهيم .
(٦) الآية ٨ من سورة الزمر .
(٧) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

وإنما جوّزوا ذلكٍ لحصولها بين يَدَىْ متكلم وسامع . ولما كان كناية عن غير مذكور لم يُزد معه الظهر لئلا يلتبس بالدَّابة ، لأن الظهر أكثر ما يستعمل فى الدابة ، قال (ص) : « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » .

وأما فى الملائكة فقد تقدّم ذكر الأرض فى قوله : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض ﴾[1] وبعدها : ﴿ ولا فى الأرض ﴾ فكان كناية عن مذكور سابق ، فذكر الظهر حيث لا يلتبس .

قال الخطيب : إنما قال فى النحل : ﴿ بظلمهم ﴾ ولم يقل ﴿ على ظهرها ﴾ احترازا عن الجمع بين الظاءين ، لأنها تثقل فى الكلام وليست لأمة من الأمم سوى العرب . قال : ولم يجىء فى هذه السورة إلا فى سبعة أحرف ، نحو الظلم والنظر والظلّ ، وظلّ وجهه والظُفِر والعظم والوعظ ، فلم يجمع بينهما فى جملتين معقودتين عَقْد كلام واحد ، وهو لوْ وجوابه .

قوله : ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ : وفى العنكبوت : ﴿ من بعد موتها ﴾ .

وكذلك حذف (من) من قوله : ﴿ لكى لا يعلم بعد علم شيئاً ﴾ وفى الحج ﴿ من بعد علم شيئا ﴾ فحذف (مِنْ) فى قوله : ﴿ بعد موتها ﴾ موافقة لقوله : ﴿ بعد علم شيئاً ﴾ وحذف (مِن) فى قوله : ﴿ بعد علم شيئاً ﴾ لأنه أجمل الكلام فى هذه السورة ، فقال : ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ﴾ وفصّله فى الحج فقال : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ﴾ إلى قوله : ﴿ ومنكم من يُتَوفّى ﴾ فاقتضى الإجمال الحذف والتفصيل الإثبات فجاء فى كل سورة ما اقتضاه الحال .

قوله : ﴿ **نسقيكم مما فى بطونه** ﴾ : وفى المؤمنين ﴿ فى بطونها ﴾ لأن فى هذه السورة يعود إلى البعض وهو الإناث لأن اللبن لا يكون للكل . فصار تقدير الآية : وإن لكم فى بعض الأنعام ، بخلاف ما فى المؤمنين ، فإنه لما عطف ما يعود على الكل ولا يقتصر على البعض .

وهو قوله : ﴿ **ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها** ﴾ : لم يحتمل أن يكون المراد البعض ، فأنث حملا على الأنعام وما قيل : إن (الأنعام) ههنا بمعنى النعم لأن الألف واللام يُلحق الآحاد بالجمع والجمع بالآحاد حسنٌ ، إلا أن الكلام وقع فى التخصيص .

قوله : ﴿ **وبنعمة الله هم يكفرون** ﴾ : وفى العنكبوت ﴿ يكفرون ﴾ بغير ﴿ هم ﴾ لأن فى هذه السورة اتّصل (الخطاب) ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات** ﴾ : ثم عاد إلى الغيبة فقال : ﴿ **أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون** ﴾ : فلابد من تقييده بهم لئلا يلتبس الغيبة بالخطاب والتاء بالباء . وما فى العنكبوت اتصل بآيات استمرت على الغيبة فلم يحتج إلى تقييده بالضمير .

قوله : ﴿ **ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها**

(١) الآية ٤٤ من سورة فاطر .

لغفور رحيم ﴾ : كرر إنّ ، وكذلك فى الآية الأخرى ﴿ ثم إن ربك ﴾ لأن الكلام لمّا طال بصلته أعاد إن واسمها وثمّ ، وذكر الخبر . ومثله ﴿ أيعدكم أنكم إذا مِتّم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ﴾[1] اعاد (أنَّ) لما طال الكلام .

قوله : ﴿ **ولاتك فى ضَيْق مما** ﴾ : وفى النمل : ﴿ ولا تكن ﴾ بإثبات النون . هذه الكلمة كثر دَوْرها فى الكلام فحذف النون فيها تخفيفا من غير قياس بل تشبهًا بحروف العلة .

ويأتى ذلك فى القرآن فى بضعة عشر موضعاً تسعة منها بالتاء ، وثمانية بالياء ، وموضعان بالنون ، وموضع بالهمزة .

وخصّت هذه السورة بالحذف دون النمل موافقة لما قبلها وهو قوله : ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ والثانى أن هذه الآية نزلت تسلية للنبى (ص) حين قتل حمزة ومثَّل به فقال عليه السلام : لأفعلنَّ بهم ولأصنعنّ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون** ﴾ : فبالغ فى الحذف ليكون ذلك مبالغة فى التسلى . وجاء فى النمل على القياس ، ولأن الحزن هنا دون الحزن هناك .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

المفـــردات : ﴿ **أن أنذروا** ﴾ : الإنذار التحذير مما يخاف منه ، ﴿ **دفء** ﴾ : الشىء الذى يدفئك ، ﴿ **جمال** ﴾ : المراد هنا جمال الصورة وتركيب الخلقة ، ﴿ **تريحون** ﴾ : الرواح رجوعها بالعشى من المرعى. ﴿ **تسرحون** ﴾ : السراح ذهابها بالغداة إلى المرعى ، ﴿ **أثقالكم** ﴾ : أحمالكم .

(١) الآية ٣٥ من سورة المؤمنون .

﴿ **بشق الأنفس** ﴾ : بمشقتها وغاية جهدها ، ﴿ **جائر** ﴾ : أى مائل إلى الحق وزائغ . ﴿ **الأنعام** ﴾ : الإبل والبقر والغنم وهى الثمانية المذكورة فى سورة الأنعام .

إذا أيقن العبد بربه وعرف حقه من الوحدانية الخالصة استقرت نفسه وثبتت تجاه التيارات وعواصفها بكل بروقها ورعودها ورياحها ورمالها ، ومن ثم فإن القرآن الكريم يفتح مدارسه المباركة ليوجه إلى القلوب أضواء الوحدانية ودلائل القدرة حتى يبنى النفوس بناء سليماً ويشيدها على تقوى من الله ورضوان ولسوف نعرض الآن لهذه المدارس فى سورة النحل لنرى كيف قامت الأدلة القاطعة والحجج الساطعة على وحدانية الله وقدرته .

ففى سورة النحل نطقت الأدلة بوحدانية الله وقدرته فى شتى المجالات الكونيةَ والآفاقيةَ والأنفسيةَ ، شوامخ راسيات ورواسى ثابتات ، لا تحركها العواصف ولا تؤثر فيها الرياح القواصف ، اسمع إلى القرآن الكريم وهو يبدأ هذه السورة بهذا الإنذار الذى يدعو كل عبد للاستعداد إلى لقاء الله ، فلقاء الله حق واقع ولتوكيد وقوعه : عبر عنه بلفظ الماضى كأنه قد وقع لأن الله لا يخلف وعده : ﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ :

ثم يذكر بعد هذه الآية طريق الوحى الذى تتنزل به الملائكة ، وأنه كالروح يحيى الموات وينزل غضاً ندياً يتقاطر نوراً ورحمة ، ليعلم البشرية جمعاء أنه لا معبود بحق إلا الله .

فيقول سبحانه : ﴿ **ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون** ﴾ :

ولقد صدقت يا سيدى يا رسول الله حين أعلنت قولك : « **أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى : لا إله إلا الله** »[١] .

وبعد ذلك تأخذ السورة الكريمة طريقها فى ذكر حشد من الأدلة المتنوعة والناطقة بالوحدانية والقدرة .

فيقول سبحانه : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون** ﴾ : ففى هذه الآية المباركة يذكر أن العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه : مخلوق بالحق ، لا لهوا ، ولا باطلا ، ولا عبثاً ، ولا لعباً ، وإنما بالحق قامت السموات والأرض .

﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾[٢] .

وتعالى الله وجل جناب الحق أن يكون شريك يناقشه الحساب ، فهو الواحد العادل الحكيم المزيد .

وبعد ذكر العالمين : العلوى والسفلى ، ينتقل إلى خلق الانسان فيقول سبحانه : ﴿ **خلق الانسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين** ﴾ :

(١) أخرجه الإمام مالك في القرآن : ٣٢ . وفي الحج : ٢٤٦ .
(٢) الآية ١٧ من سورة المؤمنون .

فالانسان سر الله فى أرضه ، ومعجزته التى حارت الأفكار فيها ، ولذا يقول أحد الحكماء عن الانسان .

دواؤك فيك وما تبصر وداؤك منك وما تشعر
وأنت الكتاب المبين الذى بأحرفه يظهر المضجر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر !

﴿ فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق﴾ [٣] . فماذا كان من الانسان بعد ذلك ؟ .

قف ياأخى وقفة تدبر وإعمال فكر فى هذا النص المبين : ﴿ **فإذا هو خصيم مبين** ﴾ : يقول علماء اللغة : إن « إذا » حرف يفيد المفاجأة ، فهو بذلك يدل على أن خروج الانسان عن واجبه نحو الله ! يعتبر أمراً غير مألوف ، فما كان ينبغى من الذى خلق من نطفة مهينة أن يفاجىء بالخصومة المبينة .. والخصومة لمن ؟ لخالقه ورازقه ومنشئه !

يا مدعى الكبر إعجابا بصورته انظر خلاك ، فإن النتن تثريب
لو فكر الناس ماذا فى بطونهم ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا أقصر ، فإنك مأكول ومشروب

يقول تقى الدين الحسن البصرى : عجبت لابن آدم ! يتكبر على الارض ، وهى التى تناديه بلسان حالها : يا ابن آدم :لا تتكبر على ظهرى لأننى غداً سأضمك فى بطنى ! كيف يتكبر ابن آدم وهو الذى أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وهو ما بين ذاك يحمل فى بطنه العذرة ؟ تؤذيه بقه وتنته عرقه ، وتميته شرقه؟ كيف تعلن الخصومة على الله يا ابن آدم وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين : مرة وأنت ماء مهين من أبيك ، وأخرى وأنت طفل من رحم أمك ؟ عليك أن تذكر هذا ، ولا تنسين أنك حفنة من التراب فى البداية والنهاية .. ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ .

ولقد قلت لنفسى ، وأنا بين المقابر ..
هل رأيت الأمن والراحة إلا فى المقابر ؟
فأشارت .. فإذا للدود عبث فى المحاجر
ثم قالت : أيها السائل .. إننى لست أدرى
انظرى : كيف تساوى الكل فى هذا المكان
وتلاشى فى بقايا العبد رب الصولجان
والتقى العاشق والقالى .. فما يفترقان
أبهذا ينتهى الأمر .. ؟ فقالت : لست أدرى !

(٣) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الطارق .

أيها القبر : تكلم ، وأخبرني يا رمام
هل طوى أحلامك الموت ، وهل مات الغرام !
من هو الميت : من عام ، ومن مليون عام ؟
أتمنى أنني أدرى .. ولكن لست أدرى !

عالم الحيوان

وتنتقل بنا الأدلة من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان المسخر له بإذن الله ، فيقول جل شأنه : **﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون* وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾** :

هذه أنواع من المخلوقات : اشتملت على فوائد عديدة ، لها جليل الأثر فى حياة الانسان ، حتى أن القرآن الكريم لكثرة ما فيها من فوائد – أشار إلى بعضها : ففيها دفء فى أصوافها وأوبارها وأشعارها ، وفيها اللحوم التى تؤكل ، وفيها الركوب على ظهورها وحمل الأثقال التى لا طاقة لنا بحملها ، وفيها الفوائد المعنوية وهو ذلك الجمال فى رواحها وسروحها ، وفيها الزينة إذا وقعت العين على رؤيتها ، واستمعت الأذن إلى أصواتها من رغاء وثغاء .. وغير ذلك .

ولما كانت فوائدها لا تحصى ولا تستقصى ، فقد أجملها القرآن فى القرآن **﴿ منافع ﴾** : فلك بعد ذلك أن تقول فى هذه العبارة ما شئت من ذكر تلك الفوائد ، مما يطول شرحه ، ويكثر ذكره سبحانك ربى :

عجز اللسان عن الثناء فإنه تتصاغر الأفكار دون مداه
من كان يعرف أنك الحق الذى بَهَر العقول ، فحسبه وكفاه

قوله تعالى : **﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ﴾** :

أى[1] وهى أيضاً تحمل أمتعتكم وأحمالكم من بلد إلى آخر لم تكونوا بالغيه بدونها إلا بكلفة ومشقة وجهد شديد ونحو الآية قوله : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾[2] .

---

(١) أى : بمعنى نعم
(٢) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة المؤمنون .

وقوله : ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ [١] .

﴿ **إن ربكم لرءوف رحيم** ﴾ : ومن ثم أسبغ عليكم نعمه الجليلة ، ويسر لكم الأمور الشاقة العسيرة ، ومن رأفته ورحمته بكم أن خلق لكم الأنعام لمنافعكم ومصالحكم كما قال ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾[٢] .

﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة** ﴾ : أى وخلق لكم الخيل والبغال والحمير أيضاً لتركبوها ، وجعلها لكم زينة تتزينون بها – إلى مالكم فيها من منافع أخرى .

﴿ **ويخلق ما لا تعلمون** ﴾ : غير هذه الدواب مما يهدى إليه العلم وتستنبطه العقول كالقُطُر البرية والبحرية والطائرات التى تحمل أمتعتكم وتركبونها من بلد إلى أخرى ومن قطر إلى قطر – والمطاود الهوائية التى تسير فى الجو والغواصات التى تجرى تحت الماء إلى نحو أولئك مما تعجبون منه ، ويقوم مقام الخيل والبغال والحمير فى الركوب والزينة .

وبعد أن فصل سبحانه دلائل وحدانيته أرشد إلى أنه كفيل ببيان الطريق السوى لمن أراده فقال :

﴿ **وعلى الله قصد السبيل** ﴾ : أى وعلى الله بيان الطريق المستقيم الموصِّل من سلكه إلى الحق ، بنصب الأدلة وإرسال الرسل عليهم السلام وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .

ونحو الآية قوله : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾[٣] ، وقوله : ﴿ هذا صراط علىّ مستقيم ﴾[٤] .

﴿ **ومنها جائر** ﴾ : أى ومن السبل سبيل جائر عن الاستقامة ، معوج زائغ عن الحق ، فالسبيل القاصد هو الإسلام ، والجائر منها هو غيره من الأديان الأخرى ، سماوية كانت أو أرضية .

وخلاصة هذا : أن ثمة طرقاً تُسلك للوصول إلى الله ، وليس يصل إليه منها إلا الطريق الحق ، وهى الطريق التى شرعها ورضيها وأمر بها ، وهى طريق الاسلام له والإخبات إليه وحده كما أرشد إلى ذلك بقوله : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾[٥] .

فما عَداها فهو جائر ، وعلى الله بيان ذلك ، ليهتدى إليه الناس ويبتعدوا عن سواه .

ثم أخبر سبحانه بأن الهداية والضلال بقدرته ومشيئته فقال : ﴿ **ولو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ : أى ولو شاء سبحانه لجعلكم كالنمل والنحل فى حياتكم الاجتماعية ، أو جعلكم كالملائكة مفطورين على العبادة

(١) الآيتان ٧٩ ، ٨٠ من سورة غافر .
(٢) الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة يس .
(٣) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٤١ من سورة الحجر .
(٥) الآيات ٣٠ – ٣٢ من سورة الروم

وتقوى الله ، فلا تتجه نفوسكم إلى المعصية ، ولا تسعى إلى الشر ، ولكنه شاء أن يجعلكم تعملون أعمالكم باختياركم وتسعون إليها بعد بحثها وفحصها من سائر وجوهها ثم ترجحون منها ماتميل إليه نفوسكم ، وما ترون فيه الفائدة لكم كما قال عز من قائل : ﴿ وهديناه النجدين ﴾[1] طريقى الخير والشر - إما شاكراً وإما كافوراً .

عــالــم النبـــات

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع فى ذكر نعمته عليهم فى إنزال المطر من السماء ، وهو العلو مما لهم فيه ومتاع لهم ولأنعامهم فقال : و﴿ **لكم منه شراب** ﴾ : أى جعله عذباً زلالا يسوغ لكم شرابه ولم يجعله ملحاً أجاجا ﴿ **ومنه شجر فيه تسيمون** ﴾ : أى وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم .

وقوله : ﴿ **ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات** ﴾ : أى يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ولهذا قال : ﴿ **إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ : أى دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى : ﴿ أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾ .

عــالــم الفلك وغيــره

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(١) الآية ١٠ من سورة البلد .

المفـــردات : ﴿ **ذرأ** ﴾ : خلق . ﴿ **ألوانه** ﴾ : أى أصنافه . ﴿ **مواخر** ﴾ واحدها ماخرة : أى جارية من مخر الماء الأرض أى شقها . ﴿ **والميد** ﴾ : الحركة والاضطراب يميناً وشمالا ، ﴿ **وعلامات** ﴾ : أى معالم يستدل بها السابلة من نحو جبل ومنهل ورائحة تراب .

المنــاسبـــة

بعد أن ذكر سبحانه أنه منزه عن الشريك والولد ، وأنه لا إله إلا هو وأمر بتقواه وإخلاص العبادة له ــ ذكر هنا أدلة التوحيد واتصاف ذاته الكريمة بصفات الجلال والإكرام بأسلوب بديع جمع فيه بين دلالة المصنوع على الصانع والنعمة على المنعم – ونبه بذلك إلى أن كل واحد من هذا كاف فى صرف المشركين عما هم عليه من الشرك .

وكلما بصَّرهم بطائفة مما يرون ويشاهدون بَكتهم على ما يقولون ويفعلون وبين لهم كفرانهم نعمتى الرعاية والهداية ، فاحتج على وجوده بخلق الأجرام الفلكية ثم ثنى بذكر أحوال الإنسان ، ثم ثلث بذكر أحوال الحيوان ، ثم ربّع بذكر أحوال النبات ، ثم اختتم بذكر أحوال العناصر الأربعة .

وهكذا تنتقل بنا الأدلة إلى عالم الفلك فيقول جل شأنه ﴿ **وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر * والنجوم مسخرات بأمره * إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ :

وفى لفظ ﴿ التسخير ﴾ ما يدل على منتهى التذليل والتطويع ، ودون ما مخالفة أو انحراف أو عصيان لأمر الله .

وفى قوله تعالى : ﴿ **والنجوم مسخرات بأمره** ﴾ : إشارة عجيبة ، فإنها جملة إسمية مكونة من مبتدأ وخبر ، وإن مجيئها بهذه الصيغة لدليل على عظم عالم النجوم وما يحتويه من ثبات واستقرار فى النظام والإبداع .

فماذا يقول علماء الفلك فى هذه العوالم الفخمة ؟ ماذا يقولون فى هذا الوجود الذى نعيش فيه ؟ أى حكمة تنطق بها كلماته وأى حقيقة تشير إليها آياته ؟

إن كلمات الوجود وآياته إنما تؤكد الحقيقة الكبرى ، ولم يصل العلم بعد إلى معرفة عدد وحدات هذا الوجود ، بل كل ما وصل إليه العلماء هو التأكد بأنه مهما تقدمت العلوم ، ومهما استحدثت وسائل البحث وأجهزة الكشف فإن العلم يصل إلى ذلك على سبيل القطع . فعدد النجوم والكواكب أمر يستحيل على العلماء أن يصل إلى حقيقته ، لأن ذلك فوق الإدارك وأكثر مما يتخيله العقل .

ففى كل مرة يصل العلم عن طريق أجهزة أكثر [illegible] رأشد حساسية وأبعد رصداً إلى عدد يفوق سابقه زيادة لم تكن متوقعة . ومازال العلم يواصل أبحاثه فى استحداث وسائل جديدة للرصد ويحدثنا عن عدد النجوم حُجة الفلك العالمى السير (جيمس جينز) فى كتابه (الكون الغامض) فيقول : (ربما كان

مجموع عدد النجوم التى فى الكون قريباً من مجموع عدد حبيبات الرمل التى تغطى شواطىء البحار فى العالم كله) .

ويقول كذلك فى كتابه (النجوم ومسالكها) : « يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ٦٠ نجماً مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض ، وقد يصل العدد إلى ضعف هذا ، بل ربما إلى ثلاثة أضعاف أو خمسة أمثاله » .

ثم يضرب لذلك مثلاً فيقول : « يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب من الحجم المتوسط ، فجميع حروف الطبع التى فى هذه الكتب عدد مساو تقريباً لعدد نجوم السماء ، وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة فى الدقيقة مدة ثمانى ساعات فى كل يوم فلابد لنا من سبعمائة سنة لقراءة هذه المكتبة ، كذلك لو كنا نعد النجوم بسرعة الف وخمسمائة نجم فى الدقيقة لا ستغرقنا فى ذلك سبعمائة سنة .

أما الأرض التى نعيش عليها ، فهى أقل من نقطة على حرف فى مكتبتنا ذات النصف مليون مجلد ، أو على الأصح ، يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين فى أى كتاب من هذه الكتب فى هذه المكتبة . فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للنجوم — وهى شموس تبلغ درجة حرارتها عشرات الملايين من الدرجات التى يقيسها الانسان بأجهزته — فكيف يكون الحال بالنسبة لعدد الكواكب إذا ما عرفنا أن شمسنا هى واحدة من هذه النجوم ، وأرضنا أحد الكواكب التى تكون المجموعة الشمسية ؟ فإذا كان كل نجم ليس له سوى تسعة كواكب ، كما للشمس فقط ، فيا ترى : كم يكون عدد الكواكب ؟ وكم يكون عدد الكواكب والنجوم ؟

إن دراسة إشعاعات النجوم قد ألقت بعض الضوء على بعض وحدات هذا الكون ومركزها فى الوجود ، فقد توصل العلم إلى معرفة أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية ، وقد اختار الفلكيون السنة الضوئية التى تتكون من ٣٦٥ يوماً ، فى كل يوم ٢٤ ساعة ، وفى كل ساعة ٦٠ دقيقة . وفى الدقيقة ٦٠ ثانية — لقياس أبعاد النجوم ، فإذا وصل إلينا ضوء نجم بعد ثانية واحدة كان بعده عنا ١٨٦ الف ميل .

وقد وجد أن السُدُم التى ترصد أضواؤها على الأرض تنطوى معهاجقيقة هى أنها تبتعد عن الأرض بسرعات تتناسب مع أبعاد المسافات التى بينها وبين الأرض ، وأن آخر ما رصد من السدُم : وجد أنه يبتعد عن الأرض بسرعة هائلة تبلغ ١٥ ألف ميل فى الثانية ، فمتى بدأ فى حركته ؟ متى يقف ؟ وإلى متى ينتهى ؟ وإن أقرب سديم إلى الأرض يصل إلينا ضوؤه بعد ٨٥ ألف سنة ضوئية ، فعلى أى بعد يقع ؟ وأين أصبح الآن ؟

وتعتبر هذه الأرقام : الوحدات فى بداية الكون .. فقد أظهرت بحوث العلماء أن هناك من السدم ما لم تستطع المجاهر القوية الكبيرة أن تتبين إشعاعها وأمر هذا الوجود ليس عجيباً فى عدد النجوم والكواكب والمسافات التى بينها فقط ، وإنما العجب والحيرة الذى ظل العلماء فى عجب وحيرة منه هو

أمر إشراق النجوم . إذ كيف يمكن أن تظل هذه النجوم ملايين السنين مشرقة ولا ينتهى إشراقها ؟ هل يرجع ذلك إلى الحرارة الشديدة الموجودة داخل النجوم ، والتى يرجح العلماء أنها تصل عشرات الملايين من الدرجات الحرارية التى نعرفها ؟ ولكن كيف لا تخمد ، حتى لو فرضنا أنها تفقد من حرارتها كل يوم درجة واحدة ، بل كل شهر حتى لو فقدت كل سنة كاملة درجة واحدة ، لكان يكفى ملايين السنين - التى مرت منذ القدم - أن تصبح النجوم باردة ، ولكن ظلت حرارتها كما كانت : ملايين الدرجات ، الأمر الذى بسببه حاول العلماء وضع نظريات تفسر ذلك .

فقيل إن السبب هو وجود عناصر مشعة فى النجوم ، ولكن لم يدم هذا الرأى كثيراً ثم استبدلت هذه النظرية بالانفجار الذرى ، ثم بالانفجار الايدروجينى فى تبرير حرارة الشمس وعدم تغيرها ، ومازال العلماء فى أبحاثهم بسبيل إيجاد سبب أو آخر لإشراق النجوم .

ثم إننا نوجه هذا السؤال إلى علماء الطبيعة ، وهو كيف لا تفنى كتلة النجم ؟ إذ المعروف أن كل مادة ملتهبة تفقد من كتلتها بسبب الحرارة .

سبحانك ربى ! يا من قلت : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾[1] .

يا من يحار الفهم فى قدرتك ... وتطلب النفس حمى طاعتك
تخفى عن الناس سنا طلعتك ... وكل ما فى الكون من صنعتك

يا مبدع الكائنات أيا من كل فعلك حكمة بالغة أيا من قلت ، وقولك الحق : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار * وكل فى فلك يسبحون ﴾[2] .

ويا من قلت : ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه * إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ :

وهكذا ينتقل بنا النظم الكريم إلى ما احتوته الأرض من نبات ومعادن وكنوز لا يعلم كنهها إلا من يقول : ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾[4] .

ولقد جاء الأسلوب فى هذه الآية الكريمة بلفظ (ما) الذى يدل على العموم والشمول ، للإشارة إلى ما فى الأرض من المعادن وأنواع النبات والذهب الأسود السائل ، وكل هذا ملك لله تبارك وتعالى .

سبحانك ربى :

يا من تفرد بالبهاء وبالسنا ... فى عزه ، وله البقاء السرمد

---

(١) الآية ٩٧ من سورة الأنعام .
(٢) الآيات ٣٧ - ٤٠ من سورة يس .
(٣) الآية ١٢ من سورة فصلت .
(٤) الآية ٦ من سورة طه .

يا من له وجب الكمال لذاته فأنت ترفع من تشاء وتسعد
ما فى الوجود سواك رب يعبد كلا ، ولا مولى سواك فيقُصد
يا من له عنت الوجوه بأسرها ذلا ، وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد الفرد الذى كل القلوب له تقر وتشهد

سبحانك يا من قلت ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾[1] .

ويا من قلت : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صباً * ثم شققنا الأرض شقا * فأنبتنا فيها حبا * وعنبا وقضباً * وزيتونا ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبا * متاعا لكم ولأنعامكم ﴾[2] .

لقد صدقت يا سيدى يا رسول الله وأنت الصادق الأمين عندما تحث البشرية أن تضرب فى مناكب الأرض تطلب الرزق فقلت (التمسوا الرزق فى خبايا الأرض) .

ولئن كان علماء الاقتصاد قد أفاضوا الكلام عن الإنتاج والاستهلاك : فإن القرآن الكريم أشار إليهما فى آية كريمة حيث قال : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾[3] .

فمصدر الإنتاج قوله جل شأنه ﴿ الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً ﴾ ، ومبدأ الاستهلاك تشير إليه الآية فى هذه العبارة ﴿ فمنه يأكلون ﴾ .

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

ثم ينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى عالم البحار .. ذلك الخلق العظيم الذى جاء فى وصفه قول القائل « هو خلق عظيم ! الداخل فيه مفقود ، والخارج منه مولود ، والناس فيه دود على عود ، إذا هاج هز القلوب وأفزع النفوس » .

ويبين القرآن الكريم حال الناس فى البحر فيقول سبحانه : ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾[4]

هذا الخلق العظيم مسخر ومذلل ومنقاد ومُذعن لخالقه الذى سخره ـــ يقول جل شأنه : ﴿ **وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾ . سبحانك ربى :

---

(١) الآيتان ٥٣ ، ٥٤ من سورة طه .
(٢) الآيات ٢٤ – ٣٢ من سورة عبس
(٣) الآية ٣٣ من سورة يس .
(٤) الآية ٢٢ من سورة يونس .

لما علمت بأن قلبى فارغ ممن سواك ملأتـــه بهواك
وملأت كلى منك حتى لم أدع منى مكانا خاليـــا لسواك

فتأمل معى هذه العظمة الإلهية التى دبرت الأمور بإحكام ، ونظمت الكون بإتقان ، كيف استطاع الحيوان ، أن يعيش فى الماء وكيف تغذى على النباتات ، وماذا يقول العلم فى شرح العناية الإلهية فى عالم البحار ؟

إن من الحقائق العلمية التى أوضحتها التجارب العلمية أن جميع المواد إذا ما تجمدت زادت كثافتها ، فيما عدا الماء فإن المادة الوحيدة التى تناقض هذه الحقيقة ، إذ تقل كثافتها عن التجميد .. لذلك فإن أى كمية من الماء تتجمد فى البحار عندما يشتد البرد فإنها تطفو على السطح ، مخالفة بذلك القوانين العلمية التى تحكم المواد الأخرى ، وقد لا يتصور الإنسان لأول وهلة إذا كان شأن الماء كالمواد الأخرى – كيف يكون الأمر ؟ فعندما يغوص الجليد فى البحار فإنه لا سبيل إلى إذابته ، كما تنخفض درجة حرارة المياه المحيطة به فتتجمد بالتالى ، فكيف تعيش الأسماك وتحيا النباتات التى فى البحار ؟ لذلك فإن الجليد عندما يطفو على الماء تتوافر له فرص الذوبان ، كما أنه يُكون طبقة عازلة تحفظ درجة حرارة الماء الذى تحته فلا تصل البرودة الشديدة إلى الأسماك .

وهكذا تختلف القوانين العلمية ، وتتناقض الحقائق المرئية ، وليس من هدف إلا قيام الحياة وتدبير أمورها وتيسير سبلها .

أليس فى ذلك الرد – أبلغ الرد – على من يقول بميكانيكية الحياة ؟

فواعجبا : كيف يعصى الاله بل كيف يجحده الجاحد ؟
وفى كل شىء له آيـــة تدل على أنـــه الواحـــد

ماذا يقول المكابرون فى هذه الآية الناطقة بالتدبير الشامل والنظام المحكم ؟ من الذى دبر وأنشأ ؟ ومن الذى خلق وأوجد ؟ مع الله القائل ﴿ خلق كل شىء فقدره تقديراً ﴾[1] والقائل ﴿ وكل شىء عنده بمقدار* عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾[2] والقائل ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾[3] .

هل تستطيع الطبيعة الصماء ، وهل تقدر الصدفة العمياء أن توجد وأن تدبر ، وأن تحكم الخلق أو تنظم ؟ ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ يا من قلت وقولك الحق ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا * الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾[4] .

ويا من قلت : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾[5] .

ويا من قلت : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾[6] .

(١) الآية ٢ من سورة الفرقان .
(٢) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الرعد .
(٣) الآية ٤٩ من سورة القمر .
(٤) الآيتان ١٠٠ ، ١٠١ من سورة الكهف .
(٥) الآية ٢٥ من سورة الأنعام .
(٦) الآية ٢ من سورة القمر .

إن الوجود كله صفحة متقنة الإبداع ، تقر وتشهد بالحق أن لها خالقا مبدعا حكيما مريدا : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير * قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾[1] .

وبعد أن أخبر القرآن الكريم عن عالم البحار ، انتقل بنا بعد ذلك إلى عالم الجبال ، وما فى الأرض من أنهار وسبل وعلامات للاهتداء فى متاهات الرحاب الواسعة ، قال جل شأنه ﴿ **وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلاً لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون** ﴾ : إنها عمارة الكون تنطق بالقول السديد ، والبرهان الرشيد .

سبحان من أحيا قلوب عباده بلوائح من فيض نور هداه
فالعارفون مشاهدون لفضله مستأنسون بذكرهم إياه

من الذى أودع هذه العلامات للإرشاد فى الصحارى الشاسعة والوهاد المترامية ؟ إنه الله جل فى علاه فقد جعل منها علامات أى دلائل يهتدى بها السارى من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك حتى إذا ضل الطريق كانت عونا له ، وهدته إلى السبيل السوى فى البر والبحر .

﴿ **وبالنجم هم يهتدون** ﴾ : بالليل فى البرارى أو فى البحار وفى الآية إيحاء إلى أن مراعاة النجوم أصل فى معرفة الأوقات والطرق والقبلة ويحسن أن نتعلم من علم الفلك مايفيد تلك المعرفة .

قال قتادة : إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء : لتكون زينة للسماء ومعالم للطرق ، رجوما للشياطين ، فمن قال غير ذلك فقد تكلف مالا علم له به .

لا إله إلا الله

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

المفــردات : ﴿ **المراد بمن يخلق** ﴾ : الله سبحانه وتعالى . ﴿ **ومن لا يخلق** ﴾ : الملائكة وعيسى والأصنام ، ﴿ **وما يشعرون** ﴾ : أى لا يعلمون ، ﴿ **وأيّان** ﴾ : كمتى تدلان على الزمن ، ﴿ **لاجرم** ﴾ : أى حقاً .

(١) الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة الأنعام .

المناسبـــة

بعد أن ذكر سبحانه الدلائل على وجود الإله القادر الحكيم على أحسن ترتيب وأكمل نظام وكان فى ذلك تفصيل وإيضاح لأنواع النعم ووجوه الإحسان . قفى على ذلك بتبكيت الكفار وإبطال شركهم وعبادتهم غير الله من الأصنام والأوثان لما يلزم ذلك من المشابهة بينه تعالى وبينهما ثم أردف ذلك بيان أن لهذا الخالق نعماً لا تحصى على عباده وأنهم مهما بالغوا فى الشكر واجتهدوا فى العبادة فليسوا ببالغين شيئاً مما يجب عليهم نحوه ، ولكنه يستر عليهم ما فرط من كفرانهم ويرحمهم بفيض النعم عليهم مع عدم استحقاقهم لها ثم أعقب هذا بذكر خواص الألوهية وهى علم السر والنجوى والخلق وهذه الأصنام ليس لها شيء من ذلك فهى مخلوقة لا خالقة ولا شعور لها بحشر ولا نشر .

ومن هذا كله يعلم أن الإله واحد لا شريك له . ثم ذكر الأسباب الداعية إلى الاشراك وهى تحجر القلوب وإنكار التوحيد فهى لا ترهب فى الثواب ولا ترهب العقاب وتستكبر عن عبادة الواحد الديان . لا جرم بقيت مصرّة على ما كانت عليه من الجهل والضلال .

بعد سَوْق الأدلة ووضوحها ونظمها فى هذا المسلك الرائع والاتقان البديع يسوق القرآن هذا السؤال لكل عاقل بصير وليس المقصود بالسؤال استفهاماً . فإن الاستفهام محال فى حق الله إذ هو طلب الفهم وهو يفيد الجهل بالشيء المستفهم عنه وجل جناب الحق أن يغرب عنه شيء فى الوجود كله .

إنما المقصود بالاستفهام هنا فى قوله تعالى : ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون** ﴾ : هو الإنكار الذى يفيد النفى : أى ليس من يخلق كمن لا يخلق فهذا لمجرد التذكرة وعلى كل عاقل أن يفهم ذلك ويتدبره فإن ذلك من الأمور البديهية ومن الشئون الواضحة الجلية كالشمس فى ضحاها وهى تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية .

جلت حكمتك يا حكيم أنت الخالق المبدع المصور لا شريك لك فى ملكك .

يا حبيب القلوب هب لى رضاك ... وارحم اليوم مذنبا قد أتاك

يا إلهى وخالقى ومرادى ... قد أبى القلب أن يحب سواك

أخى القارىء الكريم :

هكذا طفت بعقلك وفكرك ووجدانك وقلبك فى هذه الرياض الباسمة : رياض الكتاب العزيز .

انتقلت من عالم السموات والأرض إلى عالم الإنسان ومن عالم الإنسان إلى عالم الحيوان ثم إلى عالم النبات ثم إلى عالم الفلك ومنه إلى ما فى الأرض من مكنون الخزائن ثم إلى عالم البحار ومنها إلى عالم الجبال والأنهار ووسائل الإرشاد فى المتاهات .

نعم الله على خلقه

ولما طال تعداد النعم وذكر هذه المخلوقات قال القرآن الكريم بعد ذلك ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم** ﴾ : إن الذى أوجد هذه الكائنات العظمى لابد أن يكون متصفاً بالعلم الشامل الكامل ولذا جاء بعد هذه الآية قوله جل شأنه ﴿ **والله يعلم ما تسرون وما تعلنون** ﴾ : ولقد بلغ من جهل الكافرين أن قال بعضهم لبعض . من أراد أن يتكلم فى شأن محمد ﷺ فليكن ذلك سراً حتى لا يسمع إله محمد ما نقول فيخبره به فماذا كان الموقف .

لقد هبط سفير الأنبياء جبريل عليه السلام بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[1] .

الله يدرى كل ما تضمر ... ويعلم ما تخفى وما تظهر

وإن خدعت الناس لم تستطع ... خداع من يطوى ومن ينشر

وحيث قد ثبت أن الله هو الخالق وحده العالم بكل شىء فإن غير الله لا يخلق لأنه لا يملك الإيجاد من العدم . ومن هنا فقد عقب الكتاب الكريم على ذلك بقوله : ﴿ **والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون** ﴾ :

الكون وقدرة الله

الكون قسمان : كون زمانى وكون مكانى .

فالكون الزمانى : هو الدنيا والآخرة .

والكون المكانى : هو السموات والأرض .

وإذا كان الله تعالى قد تحدى العالم أن يأتى بسورة من مثل القرآن الكريم فقد تحداهم بالكون المكانى أن يخلقوا ذباباً حيث يقول سبحانه ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾[2] .

العلم الحديث ووحدانية الله تعالى :

يا من يرى مد البعوض جناحه ... فى ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى نياط عروقها فى نحرها ... والمخ فى تلك العظام النحل

ويرى ويسمع ما يرى ما دونها ... فى قاع بحر زاخر متجندل

لقد كنت أعجب وأنا أقرأ تلك الأبيات للإمام الزمخشرى وهو يناجى ربه فيقول : سبحان الله ما هى تلك البعوضة التى لها عروق ونحر ومخ وعظام إلى أن قرأت هذا البحث العلمى الذى يقوم به البروفوسير (أردين ليا) الأستاذ بجامعة جورجيا الأمريكية. فاسمع إليه يقول الخبر بالحرف الواحد .

---

(١) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الملك . (٢) الآية ٧٣ من سورة الحج .

يقوم الدكتور (أروين ليا) من جامعة جورجيا بتجارب جراحية على مخ البعوض تحت الميكروسكوب مستخدماً أدوات جراحية دقيقة مثل التى يستعملها صانعو المجوهرات وذلك لمساعدة العلماء فى السيطرة على أخطاء هذه الحشرات ولا تستغرق الجراحة التى يقوم بها الدكتور (ليا) أكثر من ٥ دقائق وبمجرد انتهاء أثر البنج يستطيع المرضى من البعوض : الطيران .

ويقوم الدكتور (ليا) أستاذ علم الحشرات وطبائعها بدراسة نظام الهيرمونات والتكاثر لدى إناث البعوض الذى ينتشر فى المستنقعات وبمعرفة الطريقة التى تعمل بها الغدد الصماء فى البعوض يمكن أن تكون عاملا هاماً فى مساعدة العلماء الذين يؤمنون بأن منع تكاثر الحشرات هو أفضل السبل للسيطرة عليها وأثناء العملية .

يقوم الدكتور (ليا) بإزالة الخلايا التى تعرف باسم خلايا إفرازات الأعصاب من مخ البعوضةوكذلك بعض الغدد من الرقبة .

وقد وجد الدكتور (ليا) أن البعوضة لايمكنها بعد ذلك وضع البيضة فإذا كان هذا شأن البعوضة التى ضرب القرآن بها مثلا فقال : ﴿ إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ﴾[1] .

فما بالك بهذه الخلية وما فيها من أسرار حارت فيها عقول الباحثين ووقفت حيالها (واجمة) عبقريات العباقرة والمفكرين .

وهكذا أخذت الأدلة تتجلى فى تؤدة وثبات كأنها الجبال الشم والرواسى الشامخات إلى أن وصلت إلى حقيقة الحقائق وسر الأسرار ألا وهى قضية التوحيد فقال سبحانه بعد ذلك : ﴿ **إلهكم إله واحد** ﴾ : فهذه القضية مركز الدائرة الذى تسبح حوله الأدلة الباهرة والبراهين الباصرة إنها قضية لا إله إلا الله . فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة .

لا إله إلا الله أخلو بها وحدى لا إله إلا الله أنهى بها عمرى لا إله إلا الله يغفر بها ذنبى لا إله إلا الله أدخل بها قبرى لا إله إلا الله ألقى بها ربى :

الكل فى بحر حبه اشتاقوا ... وقد تفانوا فى سر معناه
وصححوا العقد مخلصين له ... بقولهم : لا إله إلا هو
يا معشر الذاكرين كلكم ... قولوا معى : لا إله إلا هو
وراقبوا من يعمكم كرماً ... بفضله : لا إله إلا هو
فالكون قد فاح بشره عبقا ... بذكره : لا إله إلا هو
والعرش تسبيحه له أبدا ... سبحان من لا إله إلا هو
وكل ما فى السماء من فلك ... تسليمه : لا إله إلا هو
وكل ما فى الجبال من عظم ... تسبيحه : لا إله إلا هو

(١) الآية ٢٦ من سورة البقرة .

وكل ما فى الرياض من شجر   تسبيحه : لا إله إلا هو

وكل ما فى البحار من خلق   تسبيحه : لا إله إلا هو

وكل ما فى الوجود من بشر   تسبيحه : لا إله إلا هو

وكل ما فى الزمان من عجب   أعجبه : لا إله إلا هو

وكل شىء تراه من حسن   أحسنه : لا إله إلا هو

وكل شىء يلوح من صور   فزينته لا إله إلا هو

وكل أهل العلوم قد علموا   بأنه لا إله إلا هو

وكل أهل العقول قد فهموا   بأنه لا إله إلا هو

والإنس والجن كلهم شهدوا   بأنه لا إله إلا هو

والرعد والبرق إذ يسبحه   بقوله لا إله إلا هو

وكل من ضل عن طريق هدى   دليله لا إله إلا هو

وكل من يشتكى أذى سقم   شفاؤه لا إله إلا هو

ومن أتاه بالذل مفتقرا   غناؤه لا إله إلا هو

ومن أتى بائساً ومفكراً   فجبره لا إله إلا هو

يا غارقا فى بحار غفلته   انهض وقل لا إله إلا هو

يا قوم لا تغفلوا عن ذكره   بلا إله إلا هو

كيف تنام العيون عن ملك   سبحانه لا إله إلا هو

هو الإله العظيم قدرته   سبحانه لا إله إلا هو

يا فوز من مات وهو معتقد   يشهد أن لا إله إلا هو

سبحانه ما أعم رحمته   بمذنب تاب من خطاياه

قوله تعالى : ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ : ثم أقرأ تعقيب الكتاب العزيز عليها حيث يقول جل شأنه **﴿ فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون * لاجرم أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون إنه لايحب المستكبرين ﴾** .

يقول العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة : يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك كما أخبر عنهم تعجبهم من ذلك : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب ﴾[1] .

(١) الآية ٥ من سورة ص .

وقال تعالى : ﴿ **وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون** ﴾ : [١] .

وقوله : ﴿ **وهم مستكبرون** ﴾ : أى عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده كما قال ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[٢] .

ولهذا قال هنا : ﴿ **لاجرم** ﴾ : أى حقاً ﴿ **أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون** ﴾ : أى وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء ﴿ **إنه لايحب المستكبرين** ﴾ .

وبنظرة فاحصة يتبين لنا أن الأدلة على وحدانية الله واضحة لاغموض فيها جلية لاغبار عليها وأن الذين يقفون منها موقف الإنكار أو التشكك إنما ذلك راجع لمرض فى قلوبهم فقلوبهم منكرة جاحدة مظلمة عابسة :

ماضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة ... ألا يرى نورها من ليس ذا بصر ؟

وقد قيل :

وماضر الورود وماعليها ... إذا المزكوم لم يطعم شذاها

وقد قيل أيضاً :

مايضر البحر أمسى زاخراً ... إن رمى فيه غلام بحجر

فاللهم أزل عن القلوب حجب الغفلة وبصرها بأمر دينها ودنياها .

وإن من أمراض هذه القلوب المنكرة أنها تجحد حقائق الأشياء دون أن تبحث وتفكر وتمحص وتتدبر قال سبحانه ﴿ **وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين** ﴾ : بكل هذه السهولة وبمنتهى التبجح : تنكر الحقائق .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

ومن يك ذا فم مُرّ مريض ... يجد مراً به الماء الزلالا

من مواقف الكافرين

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى

(١) الآية ٤٥ من سورة الزمر . (٢) الآية ٦٠ من سورة غافر .

ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

المفـــردات : ﴿ **الأساطير** ﴾ : واحدها أسطورة كأرجوحة وأراجيح وهى الترهات والأباطيل ، ﴿ **والأوزار** ﴾ : الآثام واحدها وزر ، ﴿ **ساء مايزرون** ﴾ : أى بئس شيئاً يعملونه ، ﴿ **المكر** ﴾ : صرف غيرك عما يريده بحيلة ويراد به هنا مباشرة الأسباب وترتيب المقدمات ، ﴿ **فأتى الله بنيانهم من القواعد** ﴾ : أى أهلكه وأفناه كما يقال أتى عليه الدهر ، ﴿ **والقواعد** ﴾ : الدعائم والعمد واحدها قاعدة ، ﴿ **خر** ﴾ : سقط ، ﴿ **يخزيهم** ﴾ : يذلهم ويهينهم ، ﴿ **وتشاقون** ﴾ : أى تخاصمون وتنازعون الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم وأصله أن كلا من المتخاصمين فى شق وجانب غير شق الآخر ، ﴿ **والذين أوتوا العلم** ﴾ : هم الأنبياء ، ﴿ **والسلم** ﴾ : الاستسلام ، ﴿ **والخضوع** ﴾ : بلى بمعنى نعم ، ﴿ **والمثوى** ﴾ : مكان الثواء والإقامة .

المناسبـــة

بعد أن ذكر دلائل التوحيد ونصب البراهين الواضحة على بطلان عبادة الأصنام أردف ذلك بذكر شبهات من أنكروا النبوة مع الجواب عنها وبين أنهم ليسوا ببدع فى هذه المقالة فقد سبقتهم أمم قبلهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فأهلكهم فى الدنيا وسيجزيهم يوم القيامة بما فعلوا ثم ذكر أنهم حين يشاهدون العذاب يستسلمون ويقولون ماكنا نعمل من سوء ولكن الله عليم بهم وبما فعلوا ولا مثوى لأمثال هؤلاء المتكبرين إلا جهنم وبئس المثوى هى .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ : أى وإذا قيل لهؤلاء الذين لايؤمنون بالآخرة من المشركين أى شيء أنزله ربكم ؟ قالوا لم ينزل شيئاً إنما الذى يتلى علينا أساطير الأولين أى هو مأخوذ من كتب المتقدمين . ونحو الآية قوله : حكاية عنهم ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾[1] .

وكانوا يفترون على الرسول ﷺ أقوالا مختلفة فتارة يقولون إنه ساحر، وأخرى إنه شاعر أو كاهن وثالثة إنه مجنون . ثم قر قرارهم على مااختلقه زعيمهم الوليد بن المغيرة المخزومى كما حكى عنه الكتاب الكريم ﴿ إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾[2] .

(١) الآية ٥ من سورة الفرقان .
(٢) الآيات ١٨ - ٢٤ من سورة المدثر .

أى يُنقل ويَحكى فتفرقوا معتقدين صحة قوله وصدق رأيه قبحهم الله وكان المشركون يقتسمون مداخل مكة ينفرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحجيج ويقولون هذه المقالة . ثم بين عاقبة أمرهم فقال : ﴿ **ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم** ﴾ : أى وإنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك لتكون عاقبتهم أنهم يتحملون آثامهم وآثام الذين يتبعونهم ويوافقونهم ، أى يصير عليهم خطؤ ضلالهم فى أنفسهم وخطيئة إغوائهم وإضلالهم لغيرهم واقتدائهم بهم كما جاء فى الحديث (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئاً ﴾[1] .

ونحو الآية قوله تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾[2] .

والمراد من قوله ﴿ **كاملة** ﴾ : أنه لا ينقص فيها شيء ولا يكفر بنحو نكبة تصيبهم فى الدنيا ولا طاعة مقبولة تكفِّر بعض تلك الأوزار كما هو حال المؤمنين .

وفائدة قوله ﴿ **بغير علم** ﴾ : بيان أنهم يضلون من لا يعلم أنهم ضُلّال وأنهم على الباطل وفى ذلك تنبيه إلى أن كيدهم لا يروج على ذى لب وإنما يقلدهم الجهلة الأغبياء وزيادة تعيير وذم لهم إذ كان عليهم إرشاد الجاهلين لا إضلالهم .

وقصارى القول أن هؤلاء قد نسوا أنفسهم واختاروا لها الكيد لرسول الله ﷺ وللمسلمين فكانوا السبب فيما احتملوه من الأوزار والآصار كما كانوا واسطة فى تحمل من اتبعوهم هذه الأوزار أيضاً والله تعالى لم يظلمهم فيما جازاهم به بل هم الذين قسطوا وجاروا على أنفسهم فاستحقوا هذا الجزاء ثم هددهم وتوعدهم فقال : ﴿ **ألا ساء مايزرون** ﴾ : أى بئس شيئاً يرتكبونه من الاثم والذنب مايفعلون .

ثم بين لهم أن غائلة مكرهم عائدة إليهم ووبال ذلك لاحق بهم كدأب من قبلهم من الأمم الخالية الذى أصابهم من العذاب ماأصابهم بتكذيبهم لرسلهم فقال : ﴿ **قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون** ﴾ .

أى إن حال من قبلهم وقد دبروا الحيل ونصبوا الحبائل ليمكروا بها رسل الله فأبطلها الله وجعلها سبيلا لهلاكهم كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين فضعضعت أساطينه وسقط عليهم السقف فهلكوا تحته من حيث لا يشعرون بسقوطه – فما نصبوه من الأساطين وظنوه سبب القوة والتحصين فى البنيان صار سبب الهلاك كذلك هؤلاء كانت عاقبة مكرهم وبالاً عليهم ونحو الآية قولهم فى المثل : من حفر لأخيه جُباً وقع فيه منكباً .

---

(١) أخرجه مسلم في العلم : ١٦ ، وفي الذكر : ١ . وأبو داود في السنة : ٦ . والترمذي في العلم : ١٥ ، وفي ثواب القرآن : ١٤ . وابن ماجه في المقدمة : ١٤ . والدارمي في فضائل القرآن : ١ .

(٢) الآية ١٣ من سورة العنكبوت .

وخلاصة ذلك :

أن الله أحبط أعمالهم وجعلها وبالاً عليهم ونقمة لهم وبعد أن بين سبحانه ماحل بأصحاب المكر فى الدنيا من العذاب والهلاك بين حالهم فى الآخرة فقال : ﴿ **ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائىَ الذين كنتم تشاقون فيهم** ﴾ : أى ثم إن ربك يوم القيامة يخزيهم بعذاب أليم ويقول لهم حين ورودهم عليه على سبيل الاستهزاء والسخرية . أين الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شركائى وهلا تحضرونهم اليوم ليدفعوا عنكم مايحل بكم من العذاب فقد كنتم تعبدونهم فى الدنيا وتتوّلونهم والولّى ينصر وليّه .

والمراد من المشاقة منهم مخاصمة الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم وزعمهم أنهم شركاء حَقا حين بينوا لهم ذلك والمراد بالاستفهام عن ذلك الاستهزاء والتبكيت والاحتقار لشأنهم إذ كانوا يقولون : إن صح ماتدعون إليه من عذابنا فالأصنام تشفع لنا والخلاصة – أنه لا شركاء ولا أماكن لهم .

ثم ذكر مقال الأنبياء والمرسلين فى شأنهم يوم القيامة : ﴿ **قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين** ﴾ : أى قال الذين أوتوا العلم بدلائل التوحيد وهم الأنبياء صلوات الله عليهم والمؤمنون الذين كانوا يدعونهم فى الدنيا إلى دينهم فيجادلون وينكرون عليهم : إن الذل والهوان والعذاب يوم الفصل على الكافرين بالله وآياته ورسله ومرادهم بهذه المقالة الشماتة وزيادة الإهانة للكافرين .

ثم بين أن الكافرين الذين يستحقون هذا العذاب هم الذين استمر كفرهم إلى أن تتوفاهم الملائكة وهم ظالمو أنفسهم فقال : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم** ﴾ : أى الكافرين الذين تقبض ملائكة الموت أرواحهم وهم ظالمو أنفسهم ومعرّضوها للعذاب المخلد بكفرهم وأى ظلم للنفس أشد من الكفر .

ثم ذكر حالهم حينئذ من الخضوع والمذلة فقال : ﴿ **فألقوا السلم ماكنا نعمل من سوء** ﴾ : أى فاستسلموا وانقادوا حين عاينوا العذاب قائلين : ماكنا نشرك بربنا أحداً وهم قد كذبوا على ربهم واعتصموا بالباطل رجاء النجاة .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ والله ربنا ماكنا مشركين ﴾[1] .

ثم كذبهم سبحانه فيما قالوا فقال : ﴿ **بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون** ﴾ : أى بل كنتم تعملون أعظم السوء وأقبح الآثام والله عليم بذلك فلا فائدة لكم فى الإنكار والله مجازيكم بأفعالكم .

ثم بين مايترتب على قبيح أفعالهم فقال : ﴿ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ .

أى فادخلوا طبقات جهنم وذوقوا ألواناً من العذاب بما دنستم به أنفسكم من الإشراك بربكم واجتراحكم عظيم الموبقات والمعاصى خالدين فيها أبدا وبئس المقيل والمقام دار الذل والهوان لمن كان متكبرا عن اتباع الرسل والاهتداء بالآيات التى أنزلت عليهم وما أفظعها من دار وصفها ربنا بقوله ﴿ **لا يقضى**

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنعام .

عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ : تلك عاقبة هؤلاء فى الدنيا والآخرة .

أما فى الآخرة : فكما قال مولانا : ﴿ **ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء مايزرون** ﴾ .

وأما عاقبتهم فى الدنيا فإنها كعاقبة الذين من قبلهم : تدمير وخسف قال سبحانه ﴿ **قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخـر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون** ﴾ .

هذه عاقبة التكذيب والخيانة والكفر والجحود ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوايصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون * فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون ﴾[1] .

وموقف هؤلاء المنكرين فى الآخرة أيضاً : خزى وتأنيب قال جل شأنه : ﴿ **ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم** ﴾ : عندئذ لا يستطيعون جواباً ولا تفسيرا .

فمن الذين يقولون كلمة الحق الفاصلة : إنهم أهل العلم قال جل شأنه ﴿ **قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين * الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ماكنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون** ﴾ .

وبعد كل هذا فإلى أين ينتهى المطاف وأين المستقر ! قال سبحانه : ﴿ **فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين** ﴾ .

جـزاء المتقيـن

۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

المناسبـة

بعد أن بيّن سبحانه أحوال المكذبين بالله ورسوله الذين ينكرون وحيه ويقولون إن محمداً قد لفق أساطير الأولين وترهاتهم ونقلها للناس ، وادعى أنها من رب الأرض والسموات وذكر ما سينالهم من

(١) الآيات ١١٢ - ١١٤ من سورة النحل .

النكال والوبال إذ يدخلون جهنم خالدين فيها كفاء ما اجترحت أيديهم من الآثام وكسبته من المعاصى أردف ذلك وصف المؤمنين الذين إذا سئلوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ، وذكر ماأعده لهم من الخير والسعادة فى جنات تجرى من تحتها الأنهار جزاء وفاقا لما أحسنوا من العمل وأتوا به من جميل الصنع .

وبعد هذا المشهد من مشاهد القيامة ، وبعد أن تقرأه بخشية وخشوع : قارن بين أصحاب القلوب المنكرة وبين أهل التقوى .. فأصحاب القلوب المنكرة إذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين ، وأصحاب التقوى : موقفهم على النقيض من ذلك .

قال تبارك اسمه وتعالى جده : ﴿ **وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا** ﴾ .

شتان ثم شتان ، وهيهات ثم هيهات بين القولين : بين « أساطير الأولين » وبين كلمة ﴿ **خيرا** ﴾ كما أنه شتان بين العاقبتين .

فعاقبة المتكبرين : ﴿ **فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها** ﴾ : هذا فى الآخرة ، وفى الدنيا : ﴿ **فأتى الله بنيانهم من القواعد * فخر عليهم السقف من فوقهم * وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾ .

وأما عاقبة المتقين فى الدنيا والآخرة ، فكما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنه ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار لهم فيها مايشاءون كذلك يجزى الله المتقين** ﴾ .

ومن المواقف الطيبة التى يقف عندها العقل عاجبا فى هذه السورة أن الله سبحانه شاء – بمنه وفضله – أن يعطى الجزاء للمؤمنين فى الدنيا والآخرة ، وقد جاء ذكر ذلك فى هذه السورة فى أربعة مواضع : هذا الموضع السابق أولها .

والموضع الثانى : قوله جل شأنه : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ .

والموضع الثالث : قوله جل جلاله : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ﴾ .

والموضع الرابع : قوله تعالى فى حق الخليل إبراهيم :﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

سبحانك اللهم ! أنت ولىُّ المتقين ، وناصر المؤمنين .

ثم قارن بعد ذلك يا أخى بين حالتى الوفاة التى يصفها الكتاب العزيز : فيقول فى حق المنكرين : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم * فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء** ﴾ .

ويقول فى حق المتقين : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ .

روى ابن أبي حاتم عن السُّدى قال : اجتمعت قريش فقالوا إن محمداً رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا ناسا من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم ، فابعثوهم فى كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين ، فمن جاء يريده ردوه عنه ، فخرج ناس فى كل طريق ، فكان إذا أقبل الرجل وافدا لقومه ينظر مايقوله محمد ، ووصل إليهم قال أحدهم : أنا فلان بن فلان فيعرّفه نسبه ويقول له : أنا أخبرك عن محمد . إنه رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له ، فيرجع الوافد ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين** ﴾ : فإن كان الوافد ممن عزم الله له الرشاد فقالوا له مثل ذلك ، قال : بئس الوافد لقومي ، إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم رجعت قبل أن أُلقى هذا الرجل وانظر ما يقول ، وآتى قومى ببيان أمره فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم ماذا يقول محمد ؟ فيقولون خيرا .

فهؤلاء هم الذين يقول الله تعالى فى شأنهم : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين** ﴾ : قال الراغب : الطيب من الناس من تعرّى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الخصال ، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال ، وهذا إيضاح لقول مجاهد : الطيب من تزكو أقواله وأفعاله .

وقوله تعالى ﴿ **طيبين** ﴾ : كلمة مختصرة جامعة لكثير من المعانى ، يدخل فيها إتيانهم بكل ما أُمِروا به ، وإجتنابهم كل ما نهوا عنه ، واتصافهم بفضائل الأخلاق وجميل السجايا ، وبراءتهم من ذميم الرذائل ، وتوجههم إلى حضرة القدس ، وعدم اشتغالهم بعالم الشهوات واللذات الجسمانية ، ويتبع ذلك أنه يطيب لهم قبض أرواحهم ، لأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة حتى كأنهم مشاهدوها .

ومن هذه حالة لا يألم بالموت كما قال : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدّعون * نزلا من غفور رحيم ﴾[1] .

أخرج ابن جرير والبيهقى عن محمد بن كعب القُرظى قال : (إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال : السلام عليك ياولىّ الله ، الله يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة) .

ماذا ينتظر المعاندون ؟

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

(١) الآيات ٣٠ - ٣٢ من سورة فصلت .

المفـــردات : ﴿ **ينظرون** ﴾ : ينتظرون . ﴿ **وأمر ربك** ﴾ : هو الهلاك وعذاب الاستئصال ، ﴿ **وحاق بهم** ﴾ : أى أحاط بهم ، وخص استعمالا بإحاطة الشر .

المناسبـــة

بعد أن ذكر طعن المشركين فى القرآن بنحو قولهم : إنه أساطير الأولين ، وإنه قول شاعر ، ثم هددهم بضروب من التهديد والوعيد ، ثم أتبعه بالثواب لمن صدق به – قفّى على ذلك ببيان أن الكفار لا يزدجرون عن أباطيلهم إلا إذا جاءتهم الملائكة قابضة أرواحهم ، أو يأتيهم عذاب الاستئصال ، فلا يُبقى منهم أحدا ثم أتبعه ببيان أن هؤلاء ليسوا ببدع فى الأمم ، فقد فعل من قبلهم مثل فعلهم فأصابهم الهلاك جزاء ما فعلوا ، وما ظلمهم الله ولكن هم قد ظلموا أنفسهم : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[1] .

ماذا ينتظر هؤلاء المعاندون المكابرون فى الحق ، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسل الله به الرسل ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾[2] .

إنهم المجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق : ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[3] .

﴿ إن الذين حقَّت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[4] .

إنهم فى غيهم سادرون وفى ريبهم يترددون وفى خوضهم يلعبون إلى أن تأتيهم ملائكة الموت ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تُجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ .

وهل ينتظرون إلا أن يأتيهم أمر ربك (أى عذابه) .

﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون * فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ .

﴿ **كذلك فعل الذين من قبلهم** ﴾ : أى ليس هؤلاء بدعا ، بل لقد سبقتهم أمم طغت وبغت وكذبت ﴿ **وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ .

قال تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[5] .

---

(١) الآية ١١ من سورة الرعد .
(٢) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر .
(٣) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .
(٤) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .
(٥) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .

وقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يقترن الجزاء بالعمل فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[1] .

قال تعالى : ﴿ **فأصابهم سيئات ما عملوا** ﴾ : وهكذا يكون الجزاء مبنيا على العمل .

قال تعالى : ﴿ **ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون** ﴾ .

وقال جلّ شأنه : ﴿ ولله ما فى السماوات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾[2] .

وقال جلّ شأنه : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين * وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين * وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ماندرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين * وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون.وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين * ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يُخرجون منها ولا هم يُستعتبون ﴾[3] .

لقد أحاط بهؤلاء العذاب جزاء ما استهزءوا بآيات الله ورسله ﴿ ولئن سألتهم ليقولنَّ إنما نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسله كنتم تستهزئون ﴾[4] .

حجـة داحضـة

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

المفـــردات : ﴿ **الطاغوت** ﴾ : كل معبود دون الله ، من شيطان وكاهن وصنم وكل من دعا إلى ضلال ويقع على الواحد كقوله : ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴾[5]

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .
(٢) الآية ٣١ من سورة النجم .
(٣) الآيات ٣٠ - ٣٥ من سورة الجاثية .
(٤) الآية ٦٥ من سورة التوبة .
(٥) الآية ٦٠ من سورة النساء .

وعلى الجمع كقوله : ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾[١] .

﴿ **حقت** ﴾ : وجبت وثبتت بالقضاء السابق فى الأزل لإصراره على الكفر والعناد .

المناسبـــة

بعد أن ذكر سبحانه أن هؤلاء المشركين لا يزدجرون إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد والوعيد ، أو أتاهم عذاب الاستئصال ، كما حدث لمن قبلهم من الأمم جزاء استهزائهم برسل الله – قفَّى على ذلك ببيان أنهم طعنوا فى إرسال الأنبياء جملة وقالوا إنا مجبورون على أعمالنا ، فلا فائدة من إرسالهم ، فلو شاء الله أن نؤمن به ولا نشرك به شيئاً ونحل ما أحله ولا نحرم شيئاً مما حرمنا لكان الأمر كما أراد ، لكنه لم يشأ إلا ما نحن عليه ، فما يقوله له الرسل إنما هو من تلقاء أنفسهم لا من عند الله .

وقد رد الله عليهم مقالهم بأنه كلام قد سبق بمثله المكذبون من الأمم السالفة ، وما على الرسل إلا التبليغ وليس عليهم الهداية ، ولم يترك الله أمة دون أن يرسل إليها هادياً يأمر بعبادته ، وينهاهم عن الضلال والشرك ، فمنهم من استجاب لدعوته ، ومنهم من أضله الله على علم ، فحقت عليهم كلمة ربك ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ثم أمرهم بالضرب فى الأرض ليروا آثار أولئك المكذبين الذين أُخذوا بذنوبهم ، ثم ذكر رسوله بأن الحرص على إيمانهم لا ينفعك شيئا ، فإن الله لا يخلق الهداية جبرا وقسرا فيمن يختار الضلالة لنفسه ، كما لا يجد أحدا يدفع عنه بأس الله ونقمته .

قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين** ﴾ .

هذا احتجاج باطل اسند فيه المعاندون كل ما فعلوه من شرك إلى المشيئة العليا كما أسندوا كل ما شرعوه لأنفسهم عندما أحلوا الحرام وحرموا الحلال إلى المشيئة ، وكأنهم يقولون ما كان هناك داع إلى إرسال الرسل فلو شاء الله لنا ألا نعبد من دونه من شيء لما عبدنا ولا حرمنا من دونه من شيء أولا يعلم هؤلاء أن مشيئة الله تعالى قد بنيت على علم وحكمة ، وأنه تعالى قد تنزه عن الجهل والعبث فهو العليم الحكيم المريد القدير ، اقتضت مشيئته أن يرسل رسلاً وينزل كتباً ويهب العباد عقلا وهؤلاء الرسل بعثوا مبشرين ومنذرين لألّا يكون للناس حجة بعد الرسل قال تعالى ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[٢] .

قال جل شأنه : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا ﴾[٣] .

(١) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة . (٢) الآية ١٥ من سورة الإسراء . (٣) الآية ٥٦ من سورة الكهف .

وقال سبحانه ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾[(١)] .

وقال تبارك اسمه ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾[(٢)] .

ليس لأحد حجة على الله بعد إرسال الرسل وليس لأحد حجة على الله تعالى بعد إنزال الكتب ، وليس لأحد على الله تعالى حجة . بعد أن وهبنا العقول ، وبعد أن رفع القلم عن ثلاثة : الخطأ والنسيان وما استكرهنا عليه ، وعن النائم حتى يستيقظ ، والصبى حتى يحتلم ، والمجنون حتى يفيق ، وبعد أن فتح باب التوبة حتى يغرغر العبد أو تطلع الشمس من مغربها ، عندئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا ، لذا ترى آيات القرآن ناطقة بمنطق العدالة الإلهية قال تعالى﴿ وما يضل به إلا الفاسقين﴾ ﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[(٣)] ﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾[(٤)] .

فالذين عبدوا من دون الله شيئاً والذين حرموا وأحلوا ما لم ينزل الله به سلطانا قد استحبوا العمى على الهدى ، لذا كان الرد من العلى العظيم ، كذلك فعل الذين من قبلهم أى من الأمم التى كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾[(٥)] .

فمن رضى فله الرضى ومن سخط فعليه السخط ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾[(٦)] ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو عليم بالمهتدين ﴾ ﴿ ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفتين * وهديناه النجدين ﴾[(٧)] ﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾[(٨)] .

قوله تعالى ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ .

كل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو : قول لا إله إلا الله ، قال تعالى ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾[(٩)] وقال جل شأنه ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[(١٠)] .

(١) الآية ١٣٤ من سورة طه .
(٢) الآيات ٦ - ٩ من سورة الملك .
(٣) الآية ١٧ من سورة فصلت .
(٤) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .
(٥) الآية ٣٥ من سورة النحل .
(٦) الآية ٣ من سورة الإنسان .
(٧) الآيات ٨ - ١٠ من سورة البلد .
(٨) الآيات ٧ - ١٠ من سورة الشمس .
(٩) الآية ٤٥ من سورة الزخرف .
(١٠) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك علا الجبين الساجد

لقد أمرت الرسل أممها بتوحيد الله واجتناب كل طاغوت والطاغوت كل ماعبد من دون الله سواء كان جنيا أو شيطانا أو بشراً طغى وبغى وجاوز حدود العبودية قال تعالى : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[1] .

وقال عز من قائل ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ﴾[2] .

وقال جل جلاله ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾[3] .

قال تعالى : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى ﴾[4] .

نعم إن الطريق واضح والحق لائح والمنادى صائح فمنهم من هدى الله فاتبع صراطه المستقيم ومنهم من زل وغوى واتبع ماأسخط الله فهوى فحقت عليه الضلالة قل لهؤلاء الضالين ﴿ **سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ .

﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[5] .

إن هؤلاء الضالين الذين حقت عليهم كلمة الضلالة ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ﴾[6] فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون .

﴿ ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[7] .

﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[8] .

﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾[9] .

---

(١) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٧٦ من سورة النساء .
(٣) الآية ٦٠ من سورة النساء .
(٤) الآية ١٧ من سورة الزمر .
(٥) الآية ٧٠ من سورة التوبة .
(٦) الآية ٣٧ من سورة النحل .
(٧) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .
(٨) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .
(٩) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر .

والهوى هو منازع النفس إلى مسالك الشر ، ومن اتبع الهوى فقد هوى .

هؤلاء الضالون مالهم من ناصرين ينصرونهم من دون الله ، ﴿ ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾[1] .

إنكارهم البعث

وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

المفـــردات : ﴿ **الجهد** ﴾ : بفتح الجيم ، ﴿ **المشقة** ﴾ : وبضمها الطاقة ، ﴿ **وجهد أيمانهم** ﴾ : أى غاية اجتهادهم فيها ، ﴿ **وبلى** ﴾ : كلمة جواب كنعم لكنها لاتقع إلا بعد النفى فتثبت مابعده ، ﴿ **وعداً عليه حقاً** ﴾ : أى وعد ذلك وعدا عليه حقاً ، أى ثابتا متحققاً لا شك فيه .

المناسبـــــة

بعد أن ذكر عز اسمه حجتهم وقولهم إنه لا حاجة إلى الأنبياء جميعاً لأنا مجبورون فيما نفعل ، وأنه لو شاء الله أن نهتدى لكان دون حاجة إلى ارسال الأنبياء ، ورده عليهم بأن الحاجة إليهم إنما هى فى تبليغ ماأمر به وترك مانهى عنه ، ولا يلزمون أحداً بإيمان ولا كفر ، أردف هذا بشبهة أخرى لهم إذ قالوا إنما نحتاج إلى الأنبياء لو كان لنا عودة إلى حياة جديدة بعد الموت فيها ثواب وعقاب ، ولكن العودة إلى حياة أخرى غير ممكنة ولا معقولة ذاك أن الجسم إذا تفرق وذهبت أجزاؤه كل مذهب امتنع أن يعود بعينه ليحاسب ويعاقب فرد الله عليهم ماقالوا بأن هذا ممكن وقد وعد عليه وعدا حقا وأنه فعل ذلك ليميز الخبيث من الطيب والعاصى من المطيع وأيضاً فإيجاده تعالى للأشياء لا يتوقف على سبق مادة ولا آلة بل يقع ذلك بمحض قدرته ومشيئته وليس لقدرته دافع ولا مانع .

أخرج ابن جرير عن إبى العالية قال : (كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به والذى أرجوه بعد الموت أنه لكذا وكذا فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت وأقسم جهد يمينه لا يبعث الله من يموت فأنزل الله ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم** ﴾ .

وأخرج أيضاً عن ابى هريرة قال : (قال الله : سبنى ابن آدم ولم يكن ينبغى له أن يسبنى ، وكذبنى ولم يكن ينبغى له أن يكذبنى ، فأما تكذيبه إياى فقال ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من

(١) الآية ١٨ من سورة غافر .

يموت ﴾ . وقلت ﴿ بلى وعدا عليه حقا ﴾ وأما سبه إياى فقال ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾ وقلت ﴿ هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد ﴾) .

قوله تعالى ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت** ﴾ .

أى أنهم اجتهدوا فى الحلف ، وأغلظوا فى الإيمان أنه لا يقع بعث بعد الموت ، وهذا استبعاد منهم لحصوله من جراء أن الميت يفنى ويعدم ، والبعث إعادة له ، وإعادة المعدوم مستحيلة .

وقد رد الله سبحانه وتعالى عليهم وكذبهم بقوله : ﴿ **بلى وعدًا عليه حقا ولكن أكثر الناس لايعلمون** ﴾ .

أى بلى سيبعثه الله بعد مماته ، وقد وعد بذلك وعداً حقاً لابد منه ، ولكن أكثر الناس لجهلهم بشئون الله وصفات كماله من علم وقدره وحكمة ونحوها لا يعلمون أن وعد الله لابد من نفاذه ، وأنه باعثهم بعد مماتهم يوم القيامة أحياء ، ومن قبل هذا جرءوا على مخالفة الرسل ، ووقعوا فى الكفر والمعاصى .

ثم ذكر سبحانه وتعالى الحكمة فى المعاد وقيام الأجساد يوم التناد فقال : ﴿ **ليبين لهم الذى يختلفون فيه** ﴾ : أى بل يبعثهم ليبين لهم وجه الحق فيما جاء به الرسل ، وخالفتهم فيه أممهم ، فيمتاز الخبيث من الطيب ، والمطيع من العاصى ، والظالم من المظلوم ، إلى نحو أولئك مما كان مدار دعوة أولئك الرسل وأنكرته الأمم الذين أرسلوا إليهم ، ويجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

﴿ **وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين** ﴾ .

أى وليعلم الذين جحدوا وقوع البعث والجزاء أنهم كانوا كاذبين فى قولهم : ﴿ **لايبعث الله من يموت** ﴾ وسيدعون إلى نار جهنم دعا وتقول لهم الزبانية : ﴿ **هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون * اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ماكنتم تعملون** ﴾ .

ثم اخبر سبحانه عن كامل قدرته وأنه لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء فقال : ﴿ **إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ : أى إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب فى إحيائه ولا بعثه لأنا إذا أردنا ذلك فإنما نقول له كن فيكون لامعاناة فيه ولا كلفة علينا .

ونحو الآية قوله ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾[١] .

وقوله : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾[٣] .

---

(١) الآية ٨٢ من سورة يس .

(٢) الآية ٥٠ من سورة القمر .

(٣) الآية ٢٨ من سورة لقمان .

وخلاصة هذا أنه تعالى مثل حصول المقدورات وفق مشيئته ، وسرعة حدوثها حين إرادته ، بسرعة حصول المأمور حين أمر الآمر وقوله ، دون هوادة ولا تراخ .

فضل الهجرة فى سبيل الله

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٤١) ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)

المناسبة

بعد أن حكى الله تعالى أن الكفار أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة ، وتمادوا فى الغى والضلالة ، (ومن هذه حاله فليس بالعسير عليه أن يقوم على إيذاء المؤمنين بألوان من الإيذاء ، حتى يضطروهم إلى الهجرة عن الديار ومفارقة الأهل والأوطان) - ذكر هنا حكم تلك الهجرة وبين ماهؤلاء المهاجرين من حسنات فى الدنيا ، وأجر فى الآخرة ، من جرّاء أنهم فارقوا أوطانهم وصبروا وتوكلوا على الله .

وفى هذا ترغيب لغيرهم فى الهجرة ، واحتمال كل أذى فى سبيل الله احتساباً للأجر .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى هذه الآية قال : (هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصارا من المؤمنين) .

قال هشيم عن العوام عمن حدثه : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول خذ بارك الله لك فيه ، هذا ماوعدك الله فى الدنيا ، وما ادخر لك فى الآخرة أفضل . ثم قرأ هذه الآية ﴿ **لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** ﴾ .

ثم وصفهم تعالى فقال : ﴿ **الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ .

أى صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة .

تهديد الكافرين

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ

لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

المفـــردات : ﴿ **البينات** ﴾ : المعجزات الدالة على صدق الرسول ، ﴿ **الزبر** ﴾ : واحدها زبور وهى كتب الشرائع والتكاليف التى يبلغها الرسل إلى العباد ، ﴿ **الذكر** ﴾ : القرآن ، ﴿ **لتبين للناس** ﴾ : أى لتوضح لهم ما خفى عليهم من أسرار التشريع ، ﴿ **والمكر** ﴾ : السعى بالفساد خفيه ، ﴿ **والسيئات** ﴾ : أى الاعمال التى تسوءهم عاقبتها ، ﴿ **يخسف بهم الأرض** ﴾ : أى يزيلها من الوجود وهم على سطحها ، ﴿ **فى تقلبهم** ﴾ : أى فى أسفارهم وسيرهم فى البلاد البعيدة للسعى فى أرزاقهم كما قال ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ﴾[1] .

﴿ **بمعجزين** ﴾ : أى بفائتين الله تعالى بالهرب والفرار ، ﴿ **التخوف** ﴾ : التنقص من قولهم تخوفت الشيء وتخيفه إذا تنقصته ، والمراد أنه ينقص أموالهم وأنفسهم قليلا قليلا حتى يأتى عليها الفناء جميعاً ، ﴿ **ويتفيأ** ﴾ : من الفيء يقال فاء الظل يفيء فيئاً إذا رجع وعاد بعد ما أزاله ضياء الشمس ، ﴿ **والظلال** ﴾ : واحدها ظل وهو ما يكون أول النهار قبل أن تناله الشمس .

قال رؤبة : « كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فىء وما لم يكن عليه الشمس فهو ظل » .

﴿ واليمين والشمائل ﴾ جانبا الشيء الكثيف من الجبال والأشجار وغيرها والسجود : الانقياد والخضوع من قولهم سجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل .

﴿ **داخرون** ﴾ : أى صاغرون منقادون واحدهم داخر وهو الذى يفعل ما تأمره به شاء أو أبى .

﴿ **يخافون ربهم** ﴾ : أى يخافون عقابه .

﴿ **من فوقهم** ﴾ : أى بالقهر والغلبة كما قال : ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾[2] .

المناسبـــة

بعد أن ذكر جلت قدرته ما قاله المشركون من أنهم لا حاجة بهم إلى الأنبياء ، لأن الحاجة إليهم إنما تدعو لو كانت هناك حياة أخرى يحاسبون فيها ، وهم لا يصدقون بها ، وليس من المعقول أن يكون أردف

(١) الآية ١٩٦ من سورة آل عمران . (٢) الآية ١٢٧ من سورة الأعراف .

ذلك بشبهة أخرى لهم : إذ قالوا هب الله أرسل رسولا فليس من الجائز أن يكون بشراً ، فالله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحداً من البشر ، فلو بعث إلينا رسولا لبعثه ملكاً .

ثم أجاب عن هذه الشبهة بأن سنة الله أن يبعث رسله من البشر ، وإن كنتم فى شك من ذلك فاسألوا أهل الكتاب الذين آمنوا عن ذلك .

ثم هددهم أن يخسف بهم الأرض كما خسف بقارون ، أو يأتيهم بعذاب من السماء فيهلكهم بغته كما فعل بقوم لوط ، أو يأخذهم وهم يتقلبون فى أسفارهم ومعايشهم ، أو يأخذهم طائفة بعد أخرى .

ثم أعقب هذا بما يدل على كمال قدرته فى تدبير أحوال العالم العلوى والسفلى على أتم نظام وأحكم تقدير .

عن ابن عباس : لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾[١] .

وقال : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون** ﴾ .

يعنى أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرته ، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً .

قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ﴾[٢] .

ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، وكذا يكون الغرض جاءت به هذه الآية الكريمة أن الذين أُرسلوا قبل رسول الله ﷺ كانوا بشرا فما الذى يمنع أن يكون محمد بشرا رسولا .

قال تعالى : ﴿ قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾[٣] .

﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾[٥]

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾[٦] .

وقال : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾[٧] .

وقال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ ﴾[٨] .

---

(١) الآية ٢ من سورة يونس .
(٢) الآية ١٠٩ من سورة يوسف .
(٣) الآية ٩٣ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ٩٤ من سورة الإسراء .
(٥) الآية ٢٠ من سورة الفرقان .
(٦) الآية ٨ من سورة الأنبياء .
(٧) الآية ٩ من سورة الأحقاف .
(٨) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

ثم أرشد الله تعالى من شك فى كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا ؟ هل كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة ، ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿ **بالبينات** ﴾ : أى بالحجج والدلائل ﴿ **والزبر** ﴾ : وهى الكتب قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك .

والزبر جمع زبور تقول العرب زبرت الكتاب إذا كتبته .

وقال تعالى : ﴿ وكل شيء فعلوه فى الزبر ﴾[1] .

وقال : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾[2] .

ثم قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر** ﴾ : يعنى القرآن ﴿ **لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾ : أى من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك ، وحرصك عليه ، واتباعك له ، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم فتفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل ﴿ **ولعلهم يتفكرون** ﴾ : أى ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة فى الدارين .

وهكذا تقوم السنة المطهرة بتفصيل ما أجمل فى الكتاب العزيز وتوضيح ما أبهم وتخصيص العام منه وتقييد المطلق وتوكيد بعض آياته ولا استغناء عن السنة إذ هى المذكرة التفسيرية للكتاب الكريم .

قال تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ﴾[3] .

وقال : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾[4] .

وقال : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾[5] .

وقال ﷺ : (ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه) : يقصد سنته الشريفة : فالوحى قسمان وحى متلو وهو القرآن ، ووحى غير متلو وهو السنة .

قال تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرآناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه ﴾[6] .

والبيان هنا السنة .

ففى الآية إشارة إلى أن الله تعالى قد حفظ السنة حفظها بالسند وقيض لها رجالاً أحاطوها بالبحث الدءوب وحرصوا على نقلها بصدق وأمانة ودونوها فى الكتب وعلى رأسها الصحيحان البخارى ومسلم فمن الذى علمنا أن الظهر أربع ركعات مثلا . ومن الذى علمنا أن المرأة لا تنكح على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا ابنة أختها ، ومن أين علمنا أن الشرع قد حرم كل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير ؟

---

(١) الآية ٥٢ من سورة القمر .
(٢) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٧ من سورة الحشر .
(٤) الآية ٨٠ من سورة النساء .
(٥) الآية ٣١ من سورة آل عمران .
(٦) الآيات ١٦ - ١٩ من سورة القيامة .

إن الذى جاء بهذا البيان إنما هو سنة رسول الله ﷺ

قوله تعالى : ﴿ **أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم** ﴾ .

لا ينزل بلاء بغير ذنب ، ولا يرفع بغير توبة ، وقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يقرن الجزاء بالعمل .

فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شراً فشر . ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[١] ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾[٢] .

قال تعالى : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[٣] .

وقال جل شأنه : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٤] .

وفى قوله جل شأنه ﴿ **أفأمن الذين مكروا السيئات** ﴾ : إخبار منه جل شأنه عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها ويمكرون بالناس فى دعائهم إياهم وحملهم عليها مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، أى من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم قوله تعالى ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور * أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ﴾[٥] .

وقوله : ﴿ **أو يأخذهم فى تقلبهم** ﴾ : أى فى اسفارهم واشتغالهم بمعايشهم .

وقال قتادة ﴿ **فى تقلبهم** ﴾ : فى الليل والنهار كقوله ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون * أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾[٦] .

وقوله : ﴿ **فما هم بمعجزين** ﴾ : أى لا يعجزون الله على أى حال كانوا عليه .

قوله تعالى : ﴿ **أو يأخذهم على تخوف** ﴾ : أى يخيفهم أولاً ثم يعذبهم بعد ذلك بأن يهلك طائفة فتخاف التى تليها حتى يأتى عليهم جميعاً ، ويكون هذا أشد عليهم إيلاماً ووحشية .

قوله تعالى : ﴿ **فإن ربكم لرءوف رحيم** ﴾ : أى حيث لم يحاكمكم بالعقوبة كما ثبت فى

---

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

(٢) الآية ٧ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ١١٧ من سورة هود .

(٤) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٥) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الملك .

(٦) الآيات ٩٧ - ١٠٠ من سورة الأعراف .

الصحيحين « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم »[١] .

ومنهما« إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ».[٢] ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا إلى ماخلق الله من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون * ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون * يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .

سبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، خشعت الأصوات لعظم ملكوته ، وعنت الوجوه لجلال جبروته ، يحيى العظام وهى رميم ، وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ، سجد له كل من فى السموات والأرض من دابة ، والملائكة وكل ما يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل بكرة وعشيا ، وهم داخرون خاضعون لعظمته ، مقهورون بإرادته ، فهو مالك كل شيء ومليكه ، بيده مقاليد السموات والأرض .

قال تعالى : ﴿ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾[٤] .

وقوله : ﴿ **والملائكة وهم لا يستكبرون** ﴾ : أى تسجد لله غير مستكبرين عن عبادته . ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم** ﴾ : أى يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله .

﴿ **ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ : أى لا يعصون الله ما أمرهم كما قال تعالى : ﴿ بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾[٦] .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب : ٧١ ، وفي التوحيد : ٣ . ومسلم في المنافقين : ٤٩ ، ٥٠ . والإمام أحمد في ٤ : ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١ : ٥ . ومسلم في البر : ٦٢ . وابن ماجه في الفتن : ٢٢ .

(٣) الآية ٤٨ من سورة الحج .

(٤) الآية ١٥ من سورة الرعد .

(٥) الآية ١٨ من سورة الحج .

(٦) الآيتان ٢٩ – ٣١ من سورة الأنبياء .

الرد على عقائد المشركين وأعمالهم

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ (٥١) وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ (٥٤) لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ (٥٥) وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ (٥٦) وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ (٥٨) يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٦٠) وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ (٦١) وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ (٦٢)﴾

المفـــردات : ﴿ **الدين** ﴾ : الطاعة والإخلاص ، ﴿ **واصبا** ﴾ : دائما ، ﴿ **واجباً** ﴾ : خالصاً ، ﴿ **تجأرون** ﴾ : تصيحون بالدعاء يقال جأر يجأر جؤارا والجؤار مثل الخوار وهو صوت البقر ، ﴿ **مسوداً** ﴾ : المراد متغيراً والسواد كناية عن غمه بالبنت ، ﴿ **كظيم** ﴾ : ممتلىء غماً وحزنا أو هو المغموم **الذى** يطبق فاه فلا يتكلم من شدة الألم مأخوذ من الكظامة وهو شدُّ فم القربة ، ﴿ **يتوارى** ﴾ : يختفى ويغيب ، ﴿ **هون** ﴾ : هوان وبلاء ، ﴿ **يدسه فى التراب** ﴾ : يواريه فى التراب ويرده إليه ، ﴿ **مثل السوء** ﴾ : المثل المراد به الصفة الغريبة غرابة المثل ، ﴿ **مفرطون** ﴾ : متروكون فيها أو مقدمون إليها .

المناسبـــة

لما بين سبحانه فى الآيات السالفة أن كل ما سواه من جماد وحيوان وإنس وجن وملك منقاد له وخاضع لسلطانه اتبع ذلك بالنهى عن الشرك به وبين أن كل ما سواه فهو ملكه .

وأنه مصدر النعم كلها . وأن الإنسان يتضرع إليه إذا مسه الضر فإذا كشفه عنه رجع إلى كفره وأن الحياة الدنيا قصيرة الأمد ثم يعلم الكفار بعدئذ ما يحل بهم من النكال والوبال جزاء لهم على سيء أعمالهم وقبيح أفعالهم . وبعد أن بين سبحانه سُخف أقوال الشرك أردف ذلك بذكر قبائح أفعالهم التي تمجها الأذواق السليمة .

قوله تعالى : ﴿ **وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون** ﴾ .

إخبار منه جل جلاله عن قوله لعباده لا تتخذوا إلهين اثنين وهذا نهى صريح عن الشرك قال ﷺ : (اجتنبوا السبع الموبقات الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[١] .

والشرك ذنب لا يغفره الله لمن مات عليه قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾[٢] .

وفى آية أخرى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾[٣] .

وقال فى حديثه القدسى الجليل : [أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشريكه][٤] .

وقال سبحانه لحبيبه ومصطفاه ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[٤] .

وقال : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ **لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد** ﴾ .

إنما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عنه للدلالة على أن المنهى عنه هى الاثنينية وأنها منافية للألوهية ، كما وصف الإله بالوحدة فى قوله ﴿ **إنما هو إله واحد** ﴾ : للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية وأنها من لوازم الألوهية .

أما الألوهية فغير منكرة ولا متنازع فيها .

﴿ **فإياى فارهبون** ﴾ : تقديم الضمير هنا يفيد التخصيص أى لا تخافوا سواى فأنا الرافع الخافض المعز المذل المحيى المميت القابض الباسط الضار النافع وغيره لا يملك من الأمر شيئاً : ﴿ قل من رب

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا : ٢٣ . وفي الطب : ٤٨ . ومسلم في الإيمان : ١٤٤ . وأبو داود في الوصايا .

(٢) الآية ٤٨ من سورة النساء .

(٣) الآية ١١٦ من سورة النساء .

(٤) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

(٥) الآية ١٨ من سورة آل عمران .

السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴾[١] .

إن هذا الإله له ما فى السموات والأرض ﴿ **وله الدين واصبا** ﴾ : أى دائماً وخالصاً وواجباً . ﴿ **أفغير الله تتقون** ﴾ ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[٢] .

(يا ابن آدم لا تخف ذا سلطان مادام سلطانى باقيا وسلطانى دائم لا يزول أبدا . يا ابن آدم كن واثقاً من رزق مضمون لك ما دامت خزائنى مملوءة وخزائنى مملوءة لا تنفد أبدا . يا ابن آدم لا ترى عيب غيرك مدام فيك عيب والمرء لا يخلو من عيب أبداً يا ابن آدم لا تدع محاربة الشيطان ما دامت روحك فى بدنك فإنه لا يدع محاربتك أبدا. يا ابن آدم لا تأمن مكرى حتى ترى نفسك فى الجنة وفى الجنة أصاب آدم ما أصاب فلا تأمن مكرى أبدا. يا ابن آدم ما أحبنى من أحب المال وما أحبنى من أحب الدنيا فإنه لا يسع قلب واحد حبى وحبها أبدا. يا ابن آدم ما خافنى من خاف الخلق وما توكل علىّ من خاف فوات الرزق وعزتى وجلالى ما توكل على عبد إلا ادخلته الجنة واكفيته كل مهمة ومن اعتصم بغيرى اسخت الأرض من تحته وقطعت الاسباب من فوقه ولا أبالى كيف أهلكته) .

قوله تعالى : ﴿ **ومابكم من نعمة فمن الله** ﴾ : هذا إقرار لا يقبل الجدل أو النقاش فنعم الله على عباده لا تعد ولا تحصى ونحن نقر بذلك ونؤمن به فالله فما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر ، قال تعالى : ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال ربى أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾[٣] .

وقال جل شأنه فى حق سليمان عليه السلام : ﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدىّ ﴾[٤] .

وسورة النحل تسمى سورة النعم ، ففيها من ألوان النعم مراتب لا تحصى ، ومراق لا تستقصى ، فمن عاش فى أسرارها واستضاء بضيائها سلك مدارج الأنوار ووقف على دقائق الأخبار لذا لما طال تعداد النعم قال تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[٥] .

ثم ذكر أنواعا من النعم ، ولما طال تعدادها قال تعالى : ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾[٦] .

---

(١) الآيات ٨٦ – ٨٩ من سورة المؤمنون .
(٢) الآية ١٢٣ من سورة هود .
(٣) الآية ١٥ من سورة الأحقاف .
(٤) الآية ١٩ من سورة النمل .
(٥) الآية ٣٤ من سورة إبراهيم .
(٦) الآية ٨١ من سورة النحل .

وهكذا فالشكر على العباد واجب ، ومهما شكر الإنسان ربه فلن يحصى فضله .

إذا كنت فى نعمة فارعها فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

قوله تعالى : ﴿ **ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون** ﴾ : لأنكم تعلمون أنه لا يقدر على إزالته إلا هو فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه وتسألون وتلحون فى الرغبة إليه مستغيثين به .

كقوله تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴾[1] .

وقال ههنا : ﴿ **ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم** ﴾ .

واللام هنا لام الصيرورة والعاقبة . كما فى قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾[2] .

أى كان المصير والعاقبة العداوة والحزن وكان المصير هنا الكفر بما آتاهم الله .

قال تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾[3] .

وهذه حال فريق من الناس عرفوا الله فى الشدة ونسوه فى الرخاء ، قال الله فى حق هؤلاء : ﴿ **فتمتعوا فسوف تعلمون** ﴾ : وهذا تهديد ووعيد إذ لا يحيق المكر السيء إلا بأهله .

قوله تعالى : ﴿ **ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون * ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون * وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون * للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

هذا إخبار عن بعض قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم ، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا : ﴿ هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾[4] .

أى جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانبه ، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٨ من سورة القصص .
(٣) الآيات ٢٢ - ٢٤ من سورة يونس .
(٤) الآية ١٣٦ من سورة الأنعام .

ذلك الذى افتروه وائتفكوه وليعاقبنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء فى نار جهنم فقال : ﴿ تالله لتسألن عما كنتم تفترون ﴾[١] .

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات الله فعبدوها معه ، فأخطئوا خطأً كبيراً فى كل مقام من هذه المقامات الثلاث ، فنسبوا إليه تعالى أن له ولدا ولا ولد له ، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم ، كما قال : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾[٢] .

وقوله ههنا ﴿ **ويجعلون لله البنات سبحانه** ﴾ : أى عن قولهم وإفكهم ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين * مالكم كيف تحكمون ﴾[٣] .

وقوله : ﴿ **ولهم ما يشتهون** ﴾ : أى يختارون لانفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التى نسبوها إلى الله تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

فإنه ﴿ **إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً** ﴾ : أى كئيبا من الهم . ﴿ **وهو كظيم** ﴾ : ساكت من شدة ماهو منه من الحزن ﴿ **يتوارى من القوم** ﴾ : أى يكره أن يراه الناس ﴿ **من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب** ﴾ : أى إن أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتن بها ويفضل أولاده الذكور عليه ﴿ **أم يدسه فى التراب** ﴾ : أى يئدها ، وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون فى الجاهلية .

أفمن يكرهونه هذه الكراهية ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله .

﴿ **ألا ساء ما يحكمون** ﴾ : أى بئس ماقالوا وبئس ماقسموا وبئس ما نسبوه إليه كقوله تعالى ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾[٤] .

وقوله هنا : ﴿ **للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السَّوْءِ** ﴾ : أى النقص إنما ينسب اليهم .

﴿ **ولله المثل الأعلى** ﴾ : أى الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[٥] .

أحمدك ربى على حلمك بعد علمك ، وعلى عفوك بعد قدرتك ، لو عاقبت الناس على ماهم عليه من الظلم ماتركت على وجه الارض مايدب ، إذاً لأهلكتهم إهلاكا ، ولكن اقتضت حكمتك أن

(١) الآية ٥٦ من سورة النحل .
(٢) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة النجم .
(٣) الآيات ١٥١ - ١٥٣ من سورة الصافات .
(٤) الآية ١٧ من سورة الزخرف .
(٥) الآية ٦١ من سورة النحل .

تؤخرهم إلى أجل أجلته ، فكل شيء عندك بمقدار ، وأنت عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، فإذا جاء هذا الأجل فإنهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

فوعدك الحق ، وقولك الحق ، فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم .

أنت البصير بعبادك العليم بأسرارهم ، الخبير بأخبارهم . سبحانك من قائل ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾[1] .

فيا عباد الله : اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة ، فدولة الظلم ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ، وعلى الباغي تدور الدوائر: يانائم الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد تأتيه أسحارا

قوله تعالى : ﴿ **ويجعلون لله مايكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون** ﴾ : من قبائح هؤلاء وافتراءاتهم على الله أنهم جعلوا له ونسبوا إليه مايكرهون من الإناث ، وكذلك جعلوا له شركاء من عبيده وهم لا يرضون لأنفسهم أن تشاركهم عبيدهم فيما يملكون ، قال تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ماملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون * بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين ﴾[2] .

وقع هذه الافتراءات وتلك الضلالات تصف السنتهم الكذب أن لهم الحسنى أى لهم النجاه والفوز في الدنيا والآخرة .

﴿ ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور ﴾[3] .

﴿ ولئن اذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾[4] .

قال تعالى : ﴿ **لاجرم أن لهم النار** ﴾ : أى حقاً أن جزاء هؤلاء النار وهذا حكم عدل ﴿ **وأنهم مفرطون** ﴾ : أى مهملون فيها مضيعون .

فاللهم عاملنا بما أنت أهله ولا تعاملنا بما نحن أهله فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة .

---

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٢) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الروم.

(٣) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة هود .

(٤) الآية ٥٠ من سورة فصلت .

نعم الله لا تحصى

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

المفـــردات : ﴿ **الأنعام** ﴾ : الإبل والبقر بنوعيه والضأن والمعز ، ﴿ **لعبرة** ﴾ : العبرة تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة ، ﴿ **فرث** ﴾ : الفرث ماينزل إلى كرش الحيوان فأما الخارج منه فلا يسمى فرثا ،﴿ **رزقا حسنا** ﴾ : جميع ما يأكلون من هاتين الشجرتين ، ﴿ **وأوحى** ﴾ : الوحى قد يستعمل بمعنى الإلهام وهو مايخلق فى القلب ابتداء من غير سبب كالغرائز والطبائع فى الحيوانات ، ﴿ **مما يعرشون** ﴾ : من الذى يعرشه ابن آدم ويعمله بيده كالخلايا من الطين والغاب والخلايا الحديثة من الخشب والزجاج .

المناسبـــة

لما حكى سبحانه عن المشركين عظيم كفرهم وقبيح أفعالهم ، بين هنا حلمه بخلقه مع ظلمهم ، وأنه يمهلهم بالعقوبة إظهاراً لفضله ورحمته ، ولو أخذهم بما كسبت أيديهم ما ترك على ظهر الأرض دابة ، أما الظالم فبظلمه ، وأما غيره فبشؤمه ، كما قال سبحانه ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾[1] .

لكنه سبحانه يحلم ويستر وينذر إلى أجل مسمى ثم سلى رسوله ﷺ على ما كان يناله من أذى

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنفال .

عشيرته بأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم ، فقد أرسلنا رسلا إلى أمم من قبلك فكذبوهم فلك بهم أسوة فلا يحزننك تكذيبهم ولا تبخع نفسك عليهم أسى وحسرة .

وبعد أن وعد المؤمنين بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وأوعد الكافرين بنار تلظى جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الاشراك بربهم ، ونسبة البنات ، إليه وافترائهم عليه مالم ينزل به سلطانا ، عاد إلى ذكر دلائل التوحيد من قبل أنه قطب الرحى فى الدين الإسلامى وكل دين سماوى ويليه إثبات النبوات والبعث والجزاء ، فبين أنه أنزل المطر من السماء لتحيا به الأرض بعد موتها ، وثنّى بإخراج اللبن من الأنعام ، وثلّث باتخاذ الخمر والخل والدِّبْس من الأعناب والنخيل ، وربّع بإخراج العسل من النحل وفيه شفاء للناس .

وقد بين أثناء ذلك كيف ألهم النحل بناء البيوت والبحث عن أرزاقها من كل فج .

قوله تعالى : ﴿ **تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم** ﴾ .

هذا قسم من الله تعالى ، والتاء هنا لا تدخل إلا على لفظ الجلالة ، والله تعالى هو المقسم بذاته ، والمقسم عليه ﴿ **لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك** ﴾ .

ولله تعالى أن يقسم بما شاء ومَن شاء من خلقه ، فهو خالق الإنسان ومبتدع الألوان ومكور الليل على النهار والنهار على الليل ، يقسم أحياناً بالأجرام الفوقية كالشمس والقمر ، ويقسم بالنجم إذا هوى ، كما يقسم بالأرض والليل والتين والزيتون وطور سنين ، أما غير الله من المكلفين فلا يجوز لهم أن يقسموا إلا بالله سبحانه ، وعليهم أن يكونوا صادقين فى أيمانهم ، وألا يجعلوا الله عرضة لأيمانهم فيقسمون إذا اضطروا .

وفى هذه الآية الكريمة ما يفيد تسلية الرسول عما وقع من قومه له : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾[١] .

وقال جل شأنه ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتول عنهم فما أنت بملوم * وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾[٢] .

يا محمد لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك أنبياء ومرسلين مبشرين ومنذرين ، وكذبوا وأوذوا فلا تبتئس بما يفعل هؤلاء ﴿ ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ﴾[٣] ، ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾[٤] ، ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين * وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن

(١) الآية ٤٣ من سورة فصلت .
(٢) الآيات ٥٢ – ٥٥ من سورة الذاريات .
(٣) الآية ١٢٧ من سورة النحل .
(٤) الآية ٨ من سورة فاطر .

استطعت أن تبتغى نفقاً فى الارض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾[١] .

واعلم أن هؤلاء الضالين المكذبين من الأمم قد زين لهم الشيطان أعمالهم ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾[٢] هذه قمة الضلال أن يرى الانسان حسنا ماليس بالحسن ، قال تعالى : ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾[٣] .

فالشيطان وليهم اليوم وساء ولياً ﴿ ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ﴾[٤] ، ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٥] .

﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ : أى مؤلم ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾[٦] .

قوله تعالى : ﴿ **وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ : لو أن هؤلاء الغافلين أزالوا الغشاوة عن عيونهم ، والأكنة عن قلوبهم ، والوقر من أذانهم ، لا نتفعوا بهذا الكتاب ، ولعلموا أنه الفصل ليس بالهزل ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم ، فيه تفصيل كل شىء ، فهو الذى لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا تمله الأتقياء ، ولا يشبع منه العلماء ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[٧] .

لقد كانت الجن أحسن حالا من كثير منا ، إنهم عندما سمعوا القرآن فقالوا ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾[٨] ، ﴿ فمالهم لا يؤمنون * وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ﴾[٩] .

والقرآن تنزيل من الرحمن الرحيم ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيراً ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون * قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾[١٠] .

(١) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٨ من سورة فاطر .
(٣) الآية ٢٤ من سورة النمل .
(٤) الآية ٣٨ من سورة النساء
(٥) الآية ٢٥ من سورة البقرة .
(٦) الآية ٥٦ من سورة النساء .
(٧) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .
(٨) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الجن .
(٩) لآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة الانشقاق .
(١٠) لآيات ٣ – ٨ من سورة فصلت .

يا أمة القرآن : اقرأوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، إن من قرأ القرآن بلسانه ، وبين اللسان والقلب حجاب ، أو سمعه بأذنيه وبين السمع والفؤاد سور له باب ، فهو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه .

ورضى الله عن قوم نظر الله إليهم في جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم **بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، فإذا مر بآية تنذر** من عذاب النار زفر زفرة كأن جهنم بين أذنيه ، كانوا شبابا مكتهلين فى شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ، قصيرة عن الباطل أرجلهم .

إن فى القرآن بياناً لكل مااختلف فيه ، وتفصيلاً لكل ماأجمل ، وتوضيحاً لكل ماأبهم ، فيه هدى للقلوب ورحمة للنفوس لقوم يؤمنون ﴿ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ .

إن القرآن نزل على القلوب فشفاها من العلل والأمراض ، كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى ، وكما ينزل الغيث على الأرض الموات فيحولها إلى جنات باسمات فينبت فيها بإذن ربها من كل زوج بهيج : ﴿ والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ .

ومن ثم فقد جاء قوله تعالى : ﴿ **والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها** ﴾ : بعد ذكر الكتاب ففى القرآن إحياء للقلوب ، وفى الماء إحياء للأرض الموات .

﴿ **لقوم يسمعون** ﴾ : سماع استجابة ، قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾[1] .

وقال جل شأنه حكاية عن أهل النار : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾[2] .

فالقرآن فيه حياة والماء فيه حياة ولكن ﴿ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[3] .

قال تعالى : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعمياناً ﴾[4] .

وبعد أن بين الكتاب العزيز المقارنة بين المنكرين والمتقين ، نواصل النظرات فى « سورةالنحل» لنسجل الأدلة الباهرة والبراهين الباصرة على وحدانية الله تعالى ، حيث ينتقل بنا النظم الكريم إلى مصانع الألبان الألهية قال تعالى : ﴿ **وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين** ﴾ .

والمراد بالأنعام هنا ، الابل ، والبقر ، والغنم .

وقوله : ﴿ **من بين فرث ودم لبنا خالصا** ﴾ : أى يتخلص اللبن : بياضه وطعمه ، وحلاوته ، من بين **فرث** ودم فى باطن الحيوان ، فيسرى كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء فى معدته ، فيصرف منه دم

(١) الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ١٠ من سورة الملك .
(٣) الآية ٣٧ من سورة ق .
(٤) الآية ٧٣ من سورة الفرقان .

يجرى فى العروق ، ولبن يجرى فى الضروع ، وبول فى المثانة ، وروث إلى المخرج ، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه : لا فى لونه ، ولا طعمه ، ولا ريحه .

فمن الذى ميز بين هذه الأشياء الأربعة : الدم ، واللبن ، والبول ، والروث وجعل لكل منها سلكاً خاصا : أهى الطبيعة الصماء ، أم الصدفة العمياء ؟

كلا ! إنها مصانع الألبان ، من طراز « كن فيكون » : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾[١] .

وقوله : ﴿ **لبنا خالصا سائغا للشاربين** ﴾ : أى لا يغص به أحد ، مع اشتماله على عناصر غذائية ، ولذا كان رسول الله ﷺ إذا أكل طعاماً فيقول : (**اللهم بارك فيما رزقتنا ، وزدنا خيراً منه**)[٢] أما إذا شرب اللبن فكان يقول : (اللهم بارك لنا فيما رزقتنا ، وزدنا منه)[٣] .

من أجل ذلك كانت الهدية التى قدمها الأمين جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج : هى اللبن وبعد ماشرب قال له الأمين عليه السلام : لقد اخترت الفطرة : أى الصفاء الذى لا تشوبه كدرة .

قوله تعالى : ﴿ **ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقاً حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون** ﴾ .

وتلك نعمة أخرى من نعم الله على عباده أن سخر لهم ما فى الأرض جميعاً ، من هذه الخيرات ثمرات النخيل والأعناب حيث يتخذون منها المواد السكرية ، ويصنعون من تلك الثمرات أنواعاً من الحلوى فيها رزق حسن وشفاء ودواء وغذاء ، إن فى ذلك لآية وعبرة لقوم يعقلون ويتدبرون ، من الذى أجرى هذا السكر السائل فى ثمرات تلك النخيل الباسقات وكروم الأعناب على مختلف أشكالها وألوانها ، الكائنات متعددة وخالقها واحد لأن ما بالطبيعة لا يختلف ولا يتخلف ﴿ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾[٤] ، ﴿ وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾[٥] .

فاسألوا علماء النبات من خالق تلك الثمار ؟ الصدفة العمياء أم الطبيعة الصماء ! ! كلا بل هو الله العزيز الحكيم .

وينتقل بنا النظم الكريم من مصانع الألبان والحلوى إلى « مصانع العسل » الذى يخرج من بطون النحل ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما**

---

(١) الآيتان ١٥٨ ، ١٥٩ من سورة يس .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات ٧٨ . والإمام مالك فى صفة النبى : ٣٤ . والامام أحمد فى ١ : ١٥٣ ، ٤ : ٦٣ ، ٥ : ٣٦٧ .

(٣) أخرجه أبو داود فى الأشربة ٢٠ . والامام أحمد فى ٤ : ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٤) الآية ٦٤ من سورة الواقعة .

(٥) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة لقمان .

يعرشون * ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ : وفى هاتين الآيتين الكريمتين مباحث

المبحث الأول
كلام المفسرين عنهما

قال علماء التفسير فى هاتين الآيتين كلاما له وزنه وقيمته العلمية ، قالوا : المراد بالوحى هنا : الالهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوى إليها ، ومن الشجر ومما يعرشون . ثم إن هذه البيوت محكمة فى غاية الإتقان ، حيث بنيت على نظام المسدسات ، وهى أشكال هندسية بديعة ، بحيث لا يكون فى بنائها خلل .

ثم أذن لها تعالى إذنا قدرياً تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى مذللة لها ، أى سهلة عليها ، حيث شاءت ، من هذا الجو العظيم ، والبرارى الشاسعة ، والأودية ، والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها ، لا تحيد عنه يمنه ولا يسرة ، بل إلى بينها وما لها فيه من فراخ وعسل . فتبنى الشمع من أجنحتها ، وتخرج العسل من بطونها ، وتبيض الفراخ من أدبارها ، ثم تصبح إلى مراعيها .

وقوله تعالى : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ : ما بين أبيض وأصفر وأحمر ، وغير ذلك من الألوان الحسنة ، على اختلاف مراعيها ومأكلها منها .

وقوله : ﴿ **فيه شفاء للناس** ﴾ : أى فى العسل شفاء للناس : أى من داءات يتعرضون لها .

قال بعض من تكلم عن الطب النبوى : لو قال فيه الشفاء للناس : لكان دواء لكل داء ، ولكنه قال : فيه شفاء للناس ، أى يصلح لكل أحد من أدواء باردة ، لأنه حار ، والشيء يداوى بضده .

وقد ثبت فى الصحيح أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال : (إن أخى استطلق بطنه ، فقال « اسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال يا رسول الله سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا ، قال : « اذهب فاسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا فما زاده إلا استطلاقاً ، قال « اذهب فاسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال : يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقاً ، فقال رسول الله ﷺ « صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلا ! » فذهب فسقاه عسلا ، فبرىء)[1] .

قال بعض العلماء فى الطب تعليقاً على هذا الحديث الشريف : كان هذا الرجل عنده فضلات فلما سقاه عسلا – وهو حار – تحللت ، فأسرعت فى الاندفاع ، فزاده إسهالا ، فاعتقد الأعرابى أن هذا يضره ، وهو مصلحة لأخيه ، ثم سقاه ، فازداد التحلل والدفع ، ثم سقاه ، فكذلك . فلما اندفعت

---

(١) أخرجه البخارى فى الطب : ٢٤ . ومسلم فى السلام : ٩١ . والترمذى فى الطب : ٣١ . والامام أحمد فى ٣ : ١٩ .

الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، استمسك بطنه وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ، ببركة إشارته ﷺ .

وقد روى البخارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : (كان يعجبه الحلواء والعسل)[١] . وفى هذا إشارة إلى ما فى العسل من القيمة الغذائية الكاملة ، كما ورد عنه ﷺ فيما رواه الامام ابن ماجة فى سننه عن عبد الله بن سعود رضى الله عنه قال : « عليكم بالشفاءين العسل والقرآن »[٢] .

وآية الشفاء فى العسل قوله تعالى : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ : وآيات الشفاء بالقرآن . قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾[٤] وقوله جل شأنه : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾[٥] .

وروى ابن ماجة أيضاً أن النبى ﷺ قال : (من لعق العسل ثلاث غدوات فى كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء)[٦] .

ثم يقول المفسرون فى ختام هذه الآية ﴿ **إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ : أى أن فى إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة ، إلى السلوك فى هذه الشواهق من الجبال ، والباثقات من الاشجار ، والاجتناء من سائر الثمار ، ثم جمعها للشمع والعسل – وهو من أطيب الاشياء – لآية لقوم يتفكرون فى عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها ، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر ، الحكيم العليم ، الكريم الرحيم .

المبحث الثانى

ذكر الحقائق العلمية فى كيفية بناء النحل لبيوته

إن مملكة النحل عجيبة الصنع ، محكمة الاتقان ، ولقد أراد الله سبحانه وتعالى توجيه نظر العباد إلى بيوت النحل – التى تعتبر أحسن مثل لهندسة المبانى وتعاون أفراد النحل .. فيقول عز من قائل فى سورة النحل : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون** ﴾ : وقد أثبت التاريخ أن النحل اتخذ بيوته من الجبال أولا ، ثم فى الأشجار ثانيا ، ثم فى الأعراش والخلايا بعد ذلك .

(١) خرجه البخارى فى الطلاق : ٨ ، وفى الأطعمة : ٣٢ ، وفى الاشربة : ١٠ ، ١٥ ، وفى الطب : ٤ ، وفى الحيل : ١٢ . واخرجه مسلم فى الرضاع : ٨٨ ، وفى الطلاق : ٢٣ . والترمذى فى الاطعمة : ٢٩ . وابوداود فى الاشربة : ١١ . وابن ماجة فى الاطعمة : ٣٤ . والامام أحمد فى ٦ : ٥٩ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى الطب : ٧ .

(٣) الآية ٥٧ من سورة يونس .

(٤) الآية ٨٢ من سورة الإسراء .

(٥) الآية ٤٤ من سورة فصلت .

(٦) أخرجه ابن ماجة فى الطب : ٧ .

ويقول العالم (موريس مترلنك) فى كتابه (حياة النحلة) : إنه سواء أذهب النحل إلى حيث شاء أم وضعه النحال فى مكان جديد ، فإن العدد الأكبر منه يؤلف من نفسه – وهو متلاحق متماسك – ستاراً مثلثا كثيفاً أشبه بمخروط مقلوب رأسه ، ويظل مدة من الزمن تتراوح بين ١٨ ، ٢٤ ساعة على هذا الحال ، تظهر بعدها طبقات بيضاء شفافة تحت معدة كل نحلة ، وتكون جماهير غيرها قد تولت كنس الارض وإزالة القش وكافة المواد الغريبة ثم مسحها وسد الشقوق .

وفجأة نرى نحلة من المخروط المقلوب وقد انفصلت عن البقية وصعدت إلى أعلى موضع من البيت تنزع بفمها إحدى طبقات الشمع المتدلية من بطنها وبأرجلها تدحوها وتنشرها وتلصقها بأعلى نقطة فى البيت ، وبهذا تضع حجر الزاوية فى مدينة النحل ، ثم تغادر المكان حيث تحل غيرها مكانها لتضيف إلى حجر الزاوية قطعاً من الشمع ، ومتى بلغت سمك هذه القطع الشمعية حد الكفاية ، خرجت نحلة من الجماعة تختلف عنها شكلا وتدل هيئتها على أنها مهندس قدير ، وهى لا تنتج شمعاً فتأخذ فى الطيران والوقوف ، ثم الطيران والوقوف ، فتحدد فى ذلك مواقع الغرف التى يقوم ببنائها العمال .

وينشىء النحل أربعة أنواع من الغرف : هى الغرفة الملكية ، وغرف الذكور ومخازن الطعام ، والغرف الصغيرة التى هى مهد للعمال والمخازن العادية – وهى تشغل أربعة أخماس الخلية – وغرف الانتقال للوصول بين الغرف وبعضها ، وكل غرفة عبارة عن أنبوبة مسدسة الأضلاع على قاعدة هرمية .

ويقول الدكتور (ريد) إنه لا يوجد سوى ثلاثة أشكال ممكنة للغرف تجعلها كلها متساوية ومتشاكله ، دون أن تكون هناك مسافات بينها لا فائدة منها ، وهذه الأشكال هى : المثلث المتساوى الأضلاع ، والمربع ، والمسدس المنتظم . والمسدس أصلحها ، وهو ما يعمله النحل . وقد عين « ماك لورين » الزاوية التى تلتقى عندها السطوح للحصول على أعظم اقتصاد ، فوجد أنها هى نفس الزاوية التى يلتقى عندها فعلا سطح أرض غرفة النحل .

ويقول « مترلنك » ونحن إذ نتأمل أسرار الخلية ، لا يسعنا إلا أن نطل ، على ذكر آية من آياتها هى الحجرة المسدسة ، التى تكاد تبلغ درجة الكمال المطلق ، فلا تستطيع أن تزيد عليه كل عبقريات البشر مجتمعة آية تحسينات : (ولو أن أحداً من عالم آخر هبط إلى الأرض وسأل عن أكمل ما أبدعه منطق الحياة لما وسعنا إلا أن نعرض عليه مشط الشمع المتواضع) ! ! !

خبرنى بربك فى أى الجامعات تخرجت هذه المخلوقات العجيبة ؟ وفى أى أقسام المعمار تخرج عباقرة المهندسين فى النحل ؟ وعلى أى الأساتذة درسوا علم التفاضل والتكامل ، ليخرجوا لنا أعظم إنتاج بأقل تكاليف لازمة ؟ ومن الذى ألهمهم الغزيرة أن يشيدوا تلك البيوت العجيبة : أهى الطبيعة الصماء ، أم الصدفة العمياء ؟ والله ما هذا ولا ذاك ، وإنما هو الله العزيز الحكيم ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون** ﴾ : ويقولون :

أيـن الله ، أيـن عجائبـه ؟ وذا الكون يسفر ناطق وهو كاتبه !
يشكون ، والايمان مـلء قلوبهم ويبدون ما كل العقول تكذبه !
عجائب ربى فى الأنام كثيرة ولكن جهل المرء - لاشك - غالبه !

إن بيوت النحل إنما هى مصانع من طراز « كن فيكون » أبدعتها يد القدرة ، لتكون آية لقوم يتفكرون .

المبحث الثالث
ما يقرره الطب الحديث فى الشفاء بعسل النحل

يقول عز من قائل : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ :

اعلم يا أخا الإسلام أن هذا المشهد القرآنى الذى نحن بصدده - من أول قوله تعالى : ﴿ **وإن لكم فى الأنعام لعبرة** ﴾ : إلى قوله تعالى : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه** ﴾ : وقد اشتمل على ثلاثة أنواع من الأغذية :

أولها : غذاء حيوانى ، وهو اللبن .

ثانيها : غذاء نباتى ، وهو المتمثل فى قوله تعالى : ﴿ **ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون** ﴾ .

وليس المراد « بالسَّكر » هنا المادة المحرمة ، كما ذهب البعض إلى ذلك ، لأن هناك فرقا بين السُّكر (بضم السين وسكون الكاف) وبين « السَّكر » فى الآية الكريمة ولكن النظرة الثاقبة تفيد أنها آية امتنان وتفضل من الله ، لادخل لها بالسُّكر الذى يذهب بالعقول ، وبدليل أن الله جل شأنه عطف عليها بقوله ﴿ **ورزقا حسنا** ﴾ : وبدليل أن ختام الآية جاء بـ : ﴿ **إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون** ﴾ .

فكيف يكون فى السُّكر آية للعقلاء ؟

وبدليل أن الآية توسطت آيتين اشتملتا على أعظم النعم ، هما : اللبن ، والعسل ، فلو لم تشتمل على نعمة مماثلة لهما فى الغذاء الحلال : ماتوسطت هذا العقد الفريد .

وأخيراً : فهناك فرق بعيد بين السكر والسَّكر ، فلا داعى لأن نقول إن الآية قد نسخت وأن المراد « بالسَّكر » هو « السُّكْر » إذ أن الفرق بينهما بعيد ، حيث إن المراد بالسكر (بفتح السين والكاف) هو المادة السكرية العظيمة فى ثمرات النخيل والأعناب .

ثالثها : أنواع من الأغذية ، غذاء حشرى ، وهو عسل النحل ، فماذا يقول الطب فى هذا الأخير ؟

إن عسل النحل فوق كونه غذاء ، فإنه أيضاً فيه شفاء .

وفى قوله تعالى : ﴿ **مختلف ألوانه** ﴾ : فإن هناك عسلا أصفر ، وآخر أحمر ، وثالثا غامقاً ، كعسل مدغشقر .

ثم إن العسل يحتوى على :

١ – نوعين من السكر الجلوكوز والليفيلوز .

٢ – أصماغ طبيعية وأصماغ النشا .

٣ – فيتامينات أ ، ب والفيتامين ج موجود ، ومركز بكمية كبيرة .

٤ – بعض المعادن : كالكالسيوم ، والبوتاسيوم ثم حامض النحل .

٥ – بيض النحل ، الذى يكاد لا يرى من صغر حجمه .

عسـل النحـل وفوائـده

١ – المواد السكرية :

العسل كغذاء : أهم ما فى العسل : نوعا السكر المذكوران ، وهذان النوعان لا يحتاجان لهضم ، كسكر القصب ، بل يمران من القناة الهضمية إلى الدم بدون تغير وهذه ميزة كبرى لعسل النحل .

والسكر من ضروريات الحركة : كضربات القلب ، والتنفس ، والحركة العادية ، ويمكن للإنسان أن يقوى بطريقة أسرع لو غذى بهما : سواء بالفم ؛ أو حقناً فى الوريد .. ففى الحميات – مثلا – يصبح غذاء المريض سهل الامتصاص إذا حّلى شراب الليمون بالعسل ، أو اللبن بالعسل ، لأن الجهاز الهضمى يتلبك أثناء الحميات ، فلا داعى لاشغاله بتحليل سكر القصب إلى جلوكوز أو ليفيلوز .

وفى حالات المرض بالبول السكرى ، فإن تحلية السوائل بالعسل أقل ضرراً من تحليتها بسكر القصب أو النشويات ، وذلك لأن الليفولوز لا ينقلب إلى سكر بول .

العسل كملين :

يعطى للأطفال « العسل » كملّين ويدخل فى وصفات الملينات . كالسنا (سلمكه) ، فيمزج مسحوق « السنا » مع العسل فيزيد قوة تليينها ويعمل العسل حقنة شرجية بمقدار فنجان قهوة كبير على كوب ماء دافىء فيأتى يلين أكثر ، وأقل ضرراً ، وهو أحسن من الجلسرين فى هذه الوصفة .

العسل كدواء للأمعاء :

إذا كانت الأمعاء تخمر النشويات وسكر القصب ينتج من التخمير ثانى أكسيد الكربون – أى

غازات بدون رائحة – ويحدث انتفاخاً بالبطن ، فإن العسل أقل ضرراً فى هذه الحالة من سكر القصب ، لأن سرعة امتصاصه تعيق تخميره .

٢ – الأصماغ

الأصماغ والعسل يلينان البلغم – ويسهلان خروجه ، فيفيدان فى امراض الجهاز التنفسى العادية .

٣ – الفيتامين ج

موجود بكثرة فى العسل ، وهو أهم فيتامين يحتاج له الجسم ، فيساعده على الحركة ، ومقاومة الأمراض ، ويقوى أسنانه وعظامه اللينة ، ويظهر لذلك سببان لاستعمال العسل فى الحميات ، وهى : إيجاد غذاء لا يحتاج لهضم وفيتامين « ج » لمقاومة المرضى أما الفيتامينات (أ) (ب) فإنها نافعة ، إلا أن كميتها ضئيلة .

٤ ، ٥ – المعادن وبيض النحل

موجود بكمية صغيرة تزيد فى التغذية ، كذا حامض النحل كمقوٍ للعضلات أما بيض النحل ففيه مواد زلالية نافعة ومغذية .

إن العسل مفيد فى كل زمان :

١ – فى تغذية الأطفال والمرضى.

٢ – فى علاج تخمرات الأمعاء من تناول النشويات .

٣ – فى تحلية سوائل مرضى البول السكرى .

٤ – كملّين للأطفال .

٥ – ومسهل بحقنة شرجية .

٦ – ثم مفيد فى حالات السعال مع بلغم بالجهاز التنفسى .

حقائق علميـــة

ولكى نزيد هذا الأمر وضوحاً ، ونفصله تفصيلاً يليق بإعجاز القرآن الذى يثبت نبوة محمد ﷺ : ننقل هذه الحقائق العلمية عن فريق من الأطباء الباحثين الذين قالوا فى قوله تعالى : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ :

لم يعرف قدر هذه الآية العلمية الطبية – التى تعتبر دليلا ما بعده دليل على معجزة القرآن العلمى – إلا فى السنين الأخيرة من القرن الحالى فإن عسل النحل هو سلاح الطبيب فى أغلب الأمراض ، واستعماله فى ازدياد مستمر بتقدم الطب فهو يعطى بالفم . وبالحقن الشرجية ، وتحت الجلد ، وفى الوريد ، ويعطى بصفته مقويا ، ومغذيا ، وضد التسمم الناشىء عن مواد خارجية ، مثل الزرنيخ ، والزئبق والكلوروفورم ، وكذلك ضد التسمم الناشىء عن أمراض فى أعضاء الجسم مثل التسمم البولى والناتج من أمراض الكبد والمعدة والأمعاء وفى الحميات والحصبة ، والتهاب الرئوى ، والسحائى وفى حالات الذبحة الصدرية ، وبصفة خاصة فى الارتشاحات العمومية الناشئة عن التهاب الكلى الحاد ، وفى احتقان المخ والأورام المخية .

إذا علمنا أن الجلوكوز يستعمل مع الأنسولين – حتى فى حالة التسمم الناشىء من مرض البول السكرى – علمنا مقدار فوائده ، وأن القرآن الكريم لم يذكره صدفة ، ولكنه تنزيل من حكيم حميد .

وتفيد الأخبار الطبية أن الباحثة الأمريكية « جوليا تشرش » قد توصلت – بعد تجارب متعددة – إلى أنه توجد مادة مجهولة فى عسل النحل وشمعه ، لها القدرة على شفاء تصلب المفاصل ووجدت أن العسل المستخرج من القرص مباشرة – دون أن يسخن أو يتعرض لأى معاملة صناعية – يقضى على تصلب الرسغين الذى يصيب بنى الانسان .

هذا ، وقد اتجهت الأبحاث العلمية التى تجرى على النحل وعسله إلى دراسة سم النحل : إذ تقوم حاليا بعض المؤسسات الطبية باستخراج سم النحل الذى يفرزه عن طريق آلة اللسع – لاستعماله فى معالجة بعض الأمراض المستعصية ، وفى أمريكا وانجلترا حاليا « مناحل » لا غرض لها إلا تربية النحل لاستخراج مصله وعمل حقن منها لعلاج كثير من الأمراض الروماتيزمية ، وعرق النساء والرمد الحبيبى .

وما زال العلم يحمل إلينا كل يوم فائدة طبية ، إلى جانب الفوائد التى ذكرناها فيما يخرج من بطون النحل .

وقد ذكرت الصحف اللندنية أنه توجد بلندن امرأة نمساوية تدعى مسز « أوين » تداوى المرضى الذين يئس الأطباء من شفائهم ، بِقَرْص النحل ، وقد أثار خبر هذه السيدة اهتماماً كبيراً فى أوساط لندن ، لا سيما وأن نتائج معالجتها قد أدت إلى الشفاء .

ومن الأخبار العلمية التى نشرت فى صحف ٦ مارس ١٩٥٦ أن أحد كبار الجراحين فى مستشفى « نورفولك » الإنجليزى : استخدم عسل النحل لتغطية آثار الجروح الناتجة عن العمليات الجراحية التى يجريها ، وذلك بعد أن ثبت له أنه يساعد على سرعة التئام هذه الجروح وإزالة آثارها ، فلا تترك تشويهات بعد العملية ، كما تبين له من التجارب التى أجراها أن طبيعة العسل وما يحويه من مواد تساعد على نمو الأنسجة البشرية من جديد ، فتلتئم الجروح بطريقة مستوية ، ويقوم الطبيب المذكور برش العسل على موضع الجرح بصورة سائلة أو على هيئة حبيبات .

وقد أعلن البروفوسور « كلود هيليو » من علماء فرنسا أن هناك نوعاً من النحل يسمى « النحل الملكى » له قدرة على إفناء جميع أنواع الجراثيم ، وأنه سيحقق للإنسانية فوائد عظيمة . ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾(١) .

إلَهنا ما أعظمك

خبرنى بربك يا أخا الإسلام فى أى الجامعات تخرج محمد بن عبد الله ؟ وعلى الأساتذة تلقى العلوم ؟ من الذى علم محمداً منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ماأذهل العقول وحير الأفكار ؟ إنه الله الذى قال له : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾(٢) .

فبينما العلماء المحدثون يجرون أبحاثهم ، وتتوارد الأنباء عن جهودهم — نرى ونقرأ القرآن الكريم منذ الآماد البعيدة يقول فى إعجاز المعجز ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ : ويقول خاتم الأنبياء صلوات ربى وسلامه عليه : (عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن)(٣) .

هل دخل محمد ﷺ المعامل التحليلية واستعمل الأجهزة الدقيقة ؟ هل ذهب إلى أستاذ فى الطب ووظائف الأعضاء وتلقى على يديه العلوم الكونية ؟ إن العالم يشهد أن رسول الله ﷺ لم يذهب إلى جامعة من جامعات العالم ، ولم يتتلمذ على أستاذ من الأساتذة وإنما أوحى الله إليه بكتاب حكيم : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾(٤) . وقال له : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم ﴾(٥) .

المبحث الرابع
الرد على أعداء الإسلام فى آية النحل

يحاول المستشرقين ومن على شاكلتهم من المبشرين والمستغربين أن يثيروا الغبار على كل قضية من قضايا الإسلام بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وهم فى الحقيقة أقزام يمضغون الهواء ويحاولون أن يفتلوا من الرمال حبالا وأن يطاولوا السماء ويمدوا إلى الشمس يدا شلاء .

العقاد والرد على المبشرين :

فى كتاب (ما يقال عن الإسلام) للكاتب الكبير المرحوم الأستاذ العقاد وقفت على مقال فى هذا

(١) الآية ١٣٨ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ١١٣ من سورة النساء .
(٣) أخرجه ابن ماجة فى الطب : ٧ .
(٤) الآية ٤٢ من سورة فصلت .
(٥) الآيات ١ — ٥ من سورة العلق .

الصدد رأيت أن أسجله على هذه الصفحات لما يحويه من فوائد جليلة .

يقول الأستاذ العقاد رحمه الله : إن العقل السليم لا يتقبل الحكم على الشىء بالغباوة والقداسة لعلة واحدة فى وقت واحد فإن تَقَبل العقل ذلك فلابد من سبب يوقعه فى هذه الاضطراب بإختياره وأكثر ما يكون ذلك السبب مرضا من أمراض الجنون أو هوى دفيناً يحمله على المغالطة ويعجزه عن مقاومتها أو خداعاً مقصوداً يعرفه العاقل بينه وبين نفسه ويصطنعه مع غيره لغشه والاحتيال عليه .

ولسنا نخطىء القول فى أن جماعات المبشرين المتخصصين لنقد القرآن وعقائد الإسلام آفة من هذه الآفات فليس فيمن عرفناه منهم واحد يسلم من التخبط فى التفكير كما يتخبط المصابون بالعلل العقلية أو يملكه التعصب الذميم فيقوده إلى المغالطة ويسول له أن يحجب الحقيقة عن عينيه بيديه أو يعمل عمل المحترف الذى يحتال لصناعته بما وسعه من وسائل الترويج والتضليل ولا يعفيه أن يعرض بضاعة ويهيىء لها أسباب النفاق فى السوق وربما اكتفى من النفاق بإقناع صاحب البضاعة بصدق الخدمة فى العرض والترويج وبعد هذه المقدمة : عرض الأستاذ العقاد قضية من القضايا الباطلة التى أثارها المبشر (صمويل زويمر) فى كتابه (بلاد العرب مهد الإسلام) فى فصل عن (العلوم والفنون العربية) .

قال (صمويل زويمر) فى هذا الفصل إن الشهد لم يزل معدوداً كالترياق فى بلاد العرب استناداً إلى القرآن والحديث وقد كانت الإشارة الوحيدة إلى الطب فى وحى محمد (ﷺ) هذه الكلمة (الغبية) التى يقول فيها عن النحل إنه ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ .

وقد كان هذا هو العلاج الوحيد الذى وصفه الله فى كتابه .

ثم يرد الأستاذ العقاد على هذه الفرية التى افتراها ذلك المبشر فيقول : إن الرجل المعتمد ظاهر فى قوله هذا العلامة (الغبى) إن القرآن حصر الطب كله فى دواء واحد هو (الشهد) فإن المعنى الذى تفيده الآية بغير لبس ولا محاولة .

إن الشهد (شفاء) ولم تقل إنه كل الشفاء ولا إنه شفاء من جميع الأمراض فإن وصف (الشهد) بهذه الصفة لا يزيد على أنه دواء من الأدوية . كما يوصف أى عقار من العقاقير فى الصيدليات ،

ومثل هذا الادعاء (التبشيرى) لا يعتسف اعتسافا بهذه الصورة إلا للافتراء المتعمد طمساً للحقيقة مع سوء النية .

أما حجم العلاقة (بالغباوة) على وصف الشهد بالشفاء فليس له معنى غير الغباوة المطبقة فى القائل إن كان مصدقاً لما قال .. لم لا يكون الشهد دواء من الأدوية وهو خلاصة أعشاب وأزهار .

إن علاج الأمراض بالأعشاب والأزهار قديم جداً فى كل أمة وهو قِوام للعلاج إلى اليوم فى أكثر الأدوية التى يصفها الأطباء المصريون لضروب شتى من الأمراض وتستحضرها معامل الكيمياء فى بلاد الحضارة .

وهذا قبل شيوع الكلام عن (الفيتامينات) وتقرير العلاج بها للأمراض الباطنية وأمراض الأعصاب وعلل الضعف والإعياء على اختلافها فلماذا يمتنع عن العقل كل الامتناع أن يصف دواء (الشهد) بوصف غير الغباوة لماذا يرفض العقل أن تكون خلاصة الزهر ومستودع الفيتامينات والحيوانات دواء ينتفع به الضعيف أو المريض .

إن (الغباوة)هى عجز العقل عن فهم هذه الحقيقة أو عجزه عن فتح الباب لقصورها على كل احتمال .

وإلى هنا قد تكون (الغباوة) مفهومة إذا هى تشابهت فى سوء الفهم ولم تتخصص للشهد دون غيره ولكنها (غباوة) تنزل إلى مادون مستوى الفهم إذا كان صاحبها يرفض (الشهد) علاجاً ثم يتقبل تطهير الأمراض الجلدية بدماء العصافير ويتقبل أن تكون رائحة الشواء سروراً للإله .

ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلا : بعد وفاة (زويمر) ببضع سنوات ظهر باللغة الإنجليزية كتاب عن الطب الطبيعى يقول مؤلفه عن (الشهد) ماكان (زويمر) يدعيه على القرآن الكريم .

ويعقد المؤلف لخصائص (الشهد) الطبية فصلا مستقلا يوشك أن يجعله (صيدلية) وافية تغنى عن عشرات من العقاقير وليس المؤلف واحداً من أولئك المتطببين الجهلاء بل هو الدكتور (جارفس) الطبيب المتخرج فى مدارس الطب الحديث وصاحب المباحث العلمية العديدة وهو لا يعلل فائدة (الشهد) فى العلاج (بالبركة) ولا بالتأثير النفسانى المستمد من العادة ولا بالتغذية الصالحة التى تعمل عمل الدواء وإن لم يحسبها الأطباء من الأدوية العلاجية ولكنه يعلله بأسباب علمية يعتمدهاالأطباء والصيدليون فى تحضير الأدوية وتقسيمها على حسب الجراثيم التى تحدث الأمراض أو تضاعف أضرارها ويقول فى تمهيدات فصل مطول كتبه عن (الشهد) خاصة .

إنه لايتكلم عن نظرية معروضة للامتحان بل يقرر التجربة المحققة التى أثبتت أن (البكتريا) لا تعيش فى (الشهد) لاحتوائه على مادة (البوتاس) وهى تحرم (البكتريا) تلك الرطوبة التى هى مادة

قال : إن الدكتور (ساكيت) أستاذ البكتريابكليةالزراعة فى (فورت كولنز) وضع أنواعاً من جراثيم الأمراض فى قوارير مملوءة بالعسل الصرف فماتت جراثيم (التيفود) بعد ثمان وأربعين ساعة ، وماتت جراثيم (النزلات الصدرية) فى اليوم الرابع ، وماتت الجراثيم الدوسنتاريا بعد عشر ساعات ، وماتت جراثيم أخرى بعد خمس ساعات .

ثم استطرد المؤلف إلى بيان المواد الغذائية الموفورة فى (الشهد) فذكر منها الأغذية المعدنية وعد أكثر من عشرة معادن غذائية تدخل فى تركيبه .

ونقل تقرير الأستاذ (شويت) العالم الكيماوى الذى يقول فيه : إن الأغذية المعدنية تختلف

باختلاف ألوان (الشهد) : فالنحاس والحديد والمنجنيز أوفر فى (الشهد) الضارب إلى السواد والحديد ضرورى لاتصاله بالمعادن الملونة للدم أو للهيموجلوبين .

ويلى ذلك كلام عن المعادن الغذائية وعلاقتها بألوان هذا الشراب كما جاء فى القرآن الكريم وهو يشير إلى اختلاف ألوانه وما احتوته عن أسباب الشفاء ثم أجمل الطبيب مزايا المادة السكرية فى (الشهد) فعدد منها :

١ – إنها لا تهيج جدران القنوات الهضمية .

٢ – إنها سريعة التمثيل فى البيئة .

٣ – إنها تتحول سريعاً إلى طاقة بدنية .

٤ – إنها مناسبة للمشتغلين بالألعاب الرياضية لتعويض الطاقة .

٥ – إنها بين أنواع السكريات أوفقها للكليتين .

٦ – إنها مهدئة ملطفة .

٧ – إنها مساعدة طبيعية لعملية الهضم فضلا عن سهولة الحصول عليها .

ومضى الطبيب فى بيان خصائص (الشهد) النافعة للعلاج وغذاء الكبار والصغار ولم يذكر فى سائر الفصول دواء (طبياً) آخر له مثل هذه الخصائص أو لخصائصه مثل هذا الثبوت بالتجارب الواقعة وتجارب المعامل .

تصفحت هذا الكتاب عن الطب الطبيعى فذكر كلمة (زويمر) عن الآية القرآنية ووجدتها مثالاً أصلح من كل مثال لإبراز (عقلية المبشر) بما طوته من عيوب الزيغ والتعصب والمغالطة مع عيوب الغباوة والعمى فى كثير من الأحيان ولاح لى أن نصيب (زويمر) من هذه العدة المعكوسة على قدر مكانته فى ميدان التبشير إلا أنها عدة لا ترشحه لرد المسلمين عما اعتقدوه بل لعله لا يتطلب لرسالته عدة أو فى منها لو أنه أراد تثبيت المسلمين على عقائد الاسلام (انتهى كلامه) .

ولا يسعنا بعد الكلام عن هذه المشاهد القرآنية الكريمة إلا أن نجمع هذه الآيات التى سبق الكلام عنها الآن لتكون صورة متكاملة أمام القارىء قال جل شأنه ﴿ **وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين* ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون * وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون* ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ .

صدقت يا إله العالمين

لقد أفضنا فى الحديث عن هذه الآيات لما اشتملت عليه من أدلة قطعية تخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد وتقطع الطريق على كل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين .

فليسأل الإنسان نفسه : أهناك نظام يقوم بلا منظم أو تدبير ينشأ عن غير عناية ؟ وهل تستطيع الطبعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد نظاماً أو تشيد كوناً متكاملاً منسقاً كل ما فيه ينطق بالحكمة وينفى العبث . سبحانك ربى أنت خالق كل شىء وأنت على كل شىء قدير .

يا من لا تُدركه الأبصار ولا تحويه الأقطار ولا يؤثر فيه الليل والنهار وهو الواحد القهار .

من آيات الله البينات ونعمه

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

المفـــردات : ﴿ **أرذل العمر** ﴾ : أردؤه وأخسه ، ﴿ **والحفدة** ﴾ : أولاد الأولاد على ما روى عن الحسن والأزهرى وواحدهم حافد ، ﴿ **ككتبة وكاتب** ﴾ : من الحفد وهو الخفة فى الخدمة والعمل يقال منه حفد يحفدوحفودا وحفد إذا أسرع كما جاء فى القنوت (وإليك نسعى ونحفد) ﴿ **والطيبات** ﴾ : اللذائذ والمراد بالباطل عبادة الأصنام .

المناسبـــة

بعد أن ذكر عجائب أحوال الحيوان وما فيها من نعمة للإنسان كالأنعام التى يأخذ من ضرعها اللبن والنحل التى يشتار منها العسل ، ويؤخذ منها الشمع للإضاءة ، أردف ذلك ببيان أحوال الناس فذكر مراتب أعمارهم ، وأن منهم من يموت وهو صغير ومنهم من يعمر حتى يصل إلى أرذل العمر ويصير نسّاءً لا يحفظ شيئاً ، وفى ذلك دليل على كمال قدرة الله ووحدانيته ثم ثنى بذكر أعمال أخرى لهم وهى تفضيل بعضهم على بعض فى الرزق .

فقد يُرى أكيس الناس وأكثرهم عقلاً وفهماً يفنى عمره فى طلب القليل من الدنيا وقل أن يتيسر له بينمايُرى أقل الناس علما وفهما تتفتح له أبواب السماء ويأتيه الرزق من كل صوب وذلك دليل على أن الأرزاق قد قسمها الخلاق العليم كما قال: ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ﴾.

وقال الشافعى :

ومن الدليل على القضاء كونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ثم ثلثّ بذكر نعمة ثالثة عليهم إذ جعل لهم أزواجاً من جنسهم وجعل لهم من هذه الأزواج بنين وحفدة ورزقهم المطعومات الطيبة من النبات كالثمار والحبوب والأشربة أو من الحيوان على اختلاف أنواعها .

قوله تعالى : ﴿ **والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير** ﴾ :

فهذا النص الكريم ينبه ويرشد بعد آيات النعم إلى أنه لابد من المصير المحتوم للقاء الله رب العالمين ، لذلك فإننا نرى الكتاب العزيز فى مواضع عديدة يؤكد هذا المعنى .

اسمع هذا المشهد القرآنى الذى يقول الله عز وجل فيه ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾[1] .

وبعد هذا نبه إلى المصير المحتوم الذى لابد من أن نلاقيه جميعاً فقال عز شأنه : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى * يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴾[2] .

ثم انتقل معى إلى مشهد قرآنى آخر يزيد المعنى توكيداً حيث يقول الله جل شأنه : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صبا * ثم شققنا الأرض شقا * فأنبتنا فيها حبا * وعنبا وقضبا * وزيتوناً ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبًا متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾[3] .

ثم ينبه بعد ذلك إلى ما سنلاقيه جميعاً فيقول جل شأنه : ﴿ فإذا جاءت الصاخة * يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[4] .

وهذا أيها القارىء الكريم يتجلى أمامك أن الدنيا مهما أقبلت فهى مولية وأن الحياة مهما طالت فإنها منتهية فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر ﴿ **والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير** ﴾ .

فالله تعالى يخبر فى هذه الآية الكريمة عن تصرفه فى عباده ، وأنه هو الذى أنشأهم من العدم ، ثم

(١) الآيات ٢٧ – ٣٣ من سورة النازعات .
(٢) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة النازعات .
(٣) الآيات ٢٤ – ٣٢ من سورة عبس .
(٤) الآيات ٣٣ – ٣٧ من سورة عبس .

بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يعيش حتى يدركه الهرم وهو الضعف فى الخلق ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾[١] .

وقد روى عن الإمام على كرم الله وجهه : إن أرذل العمر خمس وسبعون سنة.وفى هذه السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم .

ولهذا قال : ﴿ **لكى لا يعلم بعد علم شيئاً** ﴾ : أى بعد ما كان عالماً أصبح لا يدرى شيئاً .

روى البخارى فى تفسير هذه الآية الكريمة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول : « أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات »[٢] .

بعد ما قامت الأدلة الكونية تؤكد وحدانية الخالق ، جاءت الآية السابقة : ﴿ **والله خلقكم ثم يتوفاكم** ﴾ : لتبين أن المصير فى النهاية إلى الله الخالق العظيم .

ثم عاد النظم الكريم يحدثنا عن القضية الأصلية الأساسية التى تدور حولها الأدلة ، وهى قضية التوحيد ، فجاء القرآن بدليل يخاطب العقل خطابا منطقياً سديداً يخاطب الذين زعموا أن لله شركاء تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فقال جل شأنه : ﴿ **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادّى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون** ﴾ .

يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذه الآية عن جهل الضالين المضلين المشركين المارقين ، ويبين لهم بشاعة كفرهم فيما زعموه له من الشركاء ، وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون فى تلبيتهم فى حجهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . فقال تعالى منكراً عليهم أنتم لا ترضون أن تتساووا مع عبيدكم فيما رزقناكم . وكلمة (الرزق) هنا كلمة شاملة عامة تشمل كل ما يجود الله به على الانسان وما يهبه إياه من مطعم ومشرب وزوجة ومال ومسكن ، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له فى الألوهية والتعظيم .

كما قال فى الآية الأخرى التى تطابق هذا المعنى فى إيضاح قضية الوحدانية توضيحاً لا لبس فيه ولا غموض وهذه الآية فى سورة (الروم) حيث يقول جل شأنه : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾[٣] .

(١) الآية ٥٤ من سورة الروم .

(٢) أخرجه البخارى فى الدعوات : ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٠ - ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٧ . ومسلم فى الذكر : ٥١ ، ٥٢ ، ٧٣ . وابو داود فى الوتر : ٣٢ . والترمذى فى الدعوات : ٧٠ ، ١٠٩ ، ١١٣ . والنسائى فى الاستعاذة : ٣ ، ٥ - ٨ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٥ ، ٤٥ . والامام أحمد فى ١ : ٢٢ ، ٥٤ ، فى ٣ : ١١٣ ، ١٥٩ ، ٢٣٥ . وفى ٤ : ٣٧١ .

(٣) الآية ٢٨ من سورة الروم

وقد بلغ من روعة القرآن وعلو طبقته أن آية (الروم) هذه جاءت عقب عقد فريد انتظم عديداً من الأدلة على الوحدانية ، مثله فى ذلك كمثل آية النحل التى نحن بصدد الحديث عنها .

لقد سبق آية (الروم) السالفة الذكر قوله تعالى : ﴿ يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون * ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون * ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون *ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون * وله من فى السموات والأرض كل له قانتون * وهو الذى يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[1] .

ثم بعد بيان هذه الأدلة المضيئة بنور الوحدانية ، تأتى الآية الكريمة لتخاطب كل من له عقل وإدراك ، فتقول : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء ﴾ .

إذا كنت أيها العبد المخلوق لا ترضى لعبد تملكه يمينك أن يتساوى معك فى رزقك ، فكيف ترضى ذلك للخالق البارىء المصور ؟ وكيف تدعى زوراً وبهتاناً أن معه من عباده من يساويه فى الألوهية والعظمة ؟

سبحانك ربى يا من تقول فى الحديث الجليل : [الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فيهما أدخلته نارى][2] .

نعم يارب العزة ﴿ **فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء** ﴾

يقول ابن عباس رضى الله عنه فى هذه الآية الكريمة : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم فكيف يشركون عبيدى معى فى سلطانى ؟ فذلك قوله تعالى : ﴿ **أفبنعمة الله يجحدون** ﴾ .

ويقول ابن عباس ايضاً : فكيف ترضون لى ما لا ترضونه لأنفسكم ؟

وقوله تعالى : ﴿ **أفبنعمة الله يجحدون** ﴾ : أى أنهم جحدوا نعمة الله فأشركوا معه غيره ، وكان الأجدر بهم أن يشكروا هذه النعمة بعقيدة التوحيد .

ويواصل النظم الكريم سيره المبارك فيذكر لنا نعمة هى من جليل النعم التى امتنَّ الله بها على عباده ، فيقول جل شأنه : ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين**

(١) الآيات ١٩ – ٢٧ من سورة الروم .

(٢) أخرجه ابوداود فى اللباس : ٢٥ . ومسلم فى البر : ١٣٦ . وابن ماجه فى الزهد : ١٦ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٤٨ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢ . وفى ٦ : ١٩ .

وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ :

أى منطق وأى عقل سليم يمعن النظر فى هذه الآية ثم لا يلقى باللوم الشديد على كل من يؤمن بالباطل ، ويكفر بنعمة الله ؟

فالله جل شأنه يخبر فى هذه الآية الكريمة أن من نعمة على عباده أن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وأشكالهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته تعالى أنه خلق من بنى آدم ذكوراً وإناثاً ، وجعل الإناث أزواجاً للذكور ،ثم ذكر جَلّ **جلاله أنه** جعل من الأزواج : البنين والحفدة وهم أولاد البنين .

قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد .

قال شعبة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ **وبنين وحفدة** ﴾ : وهم الولد وولد الولد .

وفى قوله تعالى ﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾ : إيجاز بليغ ، وكلمة جامعة ، فالطيبات : كل ما تطيب به النفس من النعم فهذه الكلمة الكريمة شاملة للمواهب الإلهية التى ينعم بها الانسان وواجبه شكر المنعم عليها .

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم
وحافظ عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النقم

يا ابن آدم :

يا من بدنياه اشتغل ... وغره طول الأمل
الموت يأتى بغتة ... والقبر صندوق العمل

وبعد هذه النعم كلها يأتى الاستفهام الإنكارى ﴿ **أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون** ﴾ .

من أدلة التوحيد

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

المفـــردات : رزق السماء : المطر ، ورزق الأرض : النبات والثمار التى تخرج منها .

﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال** ﴾ : أى لاتجعلوا له الأنداد والنظراء فهو كقوله : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾[1] .

﴿ **وضرب المثل للشىء** ﴾ : ذكر الشبيه له ليوضح حاله المبهمة ويزيل ماعرض من الشك فى أمره .

﴿ **والبكم** ﴾ : الخرس وهو إما ناشىء من صمم خلقى وإما لسبب عارض ولا علة فى أذنيه فهو يسمع ولكن لسانه معتقل لا ينطق الكلام فكل من ولد غير سميع فهو أبكم لأن الكلام بعد السماع ولا سماع له وليس كل أبكم يكون أصم صمما طبيعياً فإن بعض البُكم لا يكونون صُمّاً .

﴿ **والكل** ﴾ : الغليظ الثقيل من قوله كلت السكين إذا غلظت شفرتها فلم تقطع . وكَلَّ عن الأمر : ثقل عليه فلم يستطيع عمله يوجهه : أى يرسله فى وجه معين من الطريق يقال وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه .

﴿ **على صراط مستقيم** ﴾ أى طريق عادل غير جائر .

المناسبـــة

بعد أن بيّن عزت قدرته دلائل التوحيد البيان الشافى فيما سلف ، أردف ذلك الرد على عابدى الأوثان والأصنام ، فضرب لذلك مثلين يؤكد بهما إبطال عبادتها :

أولهما : العبد المملوك الذى لايقدر على شىء والحر الكريم الغنى الكثير الإنفاق سراً وجهراً . ولفت النظر إلى أنهما هل يكونان فى نظر العقل سواء مع تساويهما فى الخلق والصورة البشرية .

وإذا امتنع ذلك فكيف ينبغى أن يسوى بين القادر على الرزق والإفضال والأصنام التى لا تملك ولا تقدر على النفع والضر .

والثانى : مثل رجلين أحدهما أبكم عاجز لا يقدر على تحصيل خير وهو عبء ثقيل على سيده وثانيهما حُوّل قلب ناطق كامل القدرة أيستويان لدى أرباب الفكر مع استوائهما فى البشرية ؟

وإذا فكيف يدور بخلد عاقل مساواة الجماد برب العالمين فى الألوهية والعبادة ؟

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى عثمان بن عفان ومولى له كافر يسمى أسيد بن أبى العاص : كان يكره الإسلام وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المئونة ، وكان المولى ينهاه عن الصدقة والمعروف .

قوله تعالى : ﴿ **ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون** ﴾ :

---

(١) الآية ٢٢ من سورة البقرة .

وهذا منتهى السفه والطيش والحمق أن يعبدوا مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئاً ، ويتركوا عبادة من بيده الملك وإليه يرجع الأمر كله ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير * يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لاتعلمون** ﴾ : هو كقوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾[2] .

فقد ثبت أن الله واحد أحد ، فلا يليق بعاقل أن يضرب له الأمثال ، ويجعل له الأشباه والأنداد ، لأن ماسوى الله تعالى إنما هو مخلوق له ، فكيف يكون المخلوق شبيهاً بالخالق ؟ !

والضلال كله أن يحب الناس خمساً وينسون خمساً : يحبون المخلوق وينسون الخالق ، ويحبون المال وينسون الحساب ، ويحبون القصور وينسون القبور ، ويحبون الدنيا وينسون الآخرة ، ويحبون الذنوب وينسون التوبة .

ابن آدم :

أنت الذى ولدتك أمك باكياً	والناس حولك يضحكون سروراً
فاعمد إلى عمل تكون إذا بكوا	فى يوم موتك ضاحكاً مسروراً

﴿ **إن الله يعلمُ وأنتم لاتعلمون** ﴾ :

ولما كانت قضية الألوهية من أعظم القضايا بل هى أعظمها جميعاً فإن القرآن الكريم أورد حشداً كبيراً من الأدلة وأراد أن يزيدها إيضاحاً وتقريراً فضرب مثلين ، إذ بالمثال يتضح المقال قال جل شأنه :

﴿ **ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأتِ بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** ﴾ .

ومعنى المثل الأول : أنه تعالى ضرب مثلاً لكل ما يعبد من دون الله فى أى زمان أو مكان ، والله تعالى هو الواحد الخالق البارىء ، فاطر السموات والأرض واهب الوجود ، والمنعم بكل شىء موجود : ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لمالكه وهو لا يقدر على شىء أبداً فلا ينفع نفسه ولا غيره ، وحراً رزقناه منا رزقاً حسناً وأعطيناه مالاً وفيراً فهو ينفق من المال سراً وجهراً فى جهات الخير والبر : هل يستوى هذا وذاك ؟ أبداً ، ومن ذا الذى يسوى بين غير الله من المخلوقات وبين الله القدير جل جلاله وتباركت

---

(١) الآيات ١٣ - ١٧ من سورة فاطر .
(٢) الآية ٢٢ من سورة البقرة

أسماؤه ، صاحب النعم وله ملك السماوات والأرض ، يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء .

الحمد لله والثناء الجميل والشكر الجزيل لله الواحد القهار المنعم بجلائل النعم والمتفضل بدقائقها لامانع لما أعطى ولا معطى لما منع هو المستحق وحده الحمد والثناء لا إله إلا هو .

﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ : أى لا يعلمون الحق فيتبعونه ويعرفون المنعم عليهم بالنعم الجليلة فيخصونه وحده بالتقديس والتنزيه .

ومعنى المثل الثانى : ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً ثانياً لنفسه ولما يفيض على عباده من النعم الدينية والدنيوية وللمعبودات التى لم تسبق لها الحياة وهى لا تضر ولا تنفع فقال :

﴿ **وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم** ﴾ : أى عيٌّ مفحم مقطوع اللسان أخرس لا يقدر على شىء أبداً ، لعدم فهمه وعدم قدرته على النطق ، ﴿ **كَلٌّ على مولاه** ﴾ : أى يقوم بحاجته ولا يؤدى عمله لنفسه فهو ثقل على قرابته هذا الأبكم الذى لا يقدر على تحصيل شىء أبداً ، وهو كلّ على مولاه أينما يوجهه إلى أى جهة أخرى لا يأتى بخير قط لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له .

هل يستوى هذا الذى وصفناه بهذه الأوصاف والذى يأمر بالعدل ويسير بالعدل ويحكم بالعدل ويأمر بالعدل وينطق ويفهم ويتصرف على أتم وجه وأكمله ، وهو على صراط مستقيم ، ودين قويم ، وسيرة صالحة ، لا إفراط فيها ولا تفريط .

والنتيجة : نستطيع أن نستنتج من هذين المثالين السابقين أن غير الله لا يمكن بحال من الأحوال أن **يتساوى مع الله ، فالله واجب الوجود لذاته ، وغير الله حادث بعد العدم ، والله واجب** له كل كمال يليق بذاته ، وغير الله لا يخلو من نقص ، والله تعالى واجب له القدم فاستحال عليه الحدوث ، ووواجب له البقاء فاستحال عليه الفناء ، ووواجب له القيام بالنفس فاستحال فى حقه الاحتياج إلى غيره ،ووجبت له المخالفة للحوادث فاستحال فى حقه المماثلة لغيره ، ووواجب له الوحدانية فاستحال فى حقه الشرك والتعدد ، ووجبت له القدرة فاستحال عليه العجز ، ووجبت له الإرادة فاستحال فى حقه القهر والجبر ، ووجب له العلم فاستحال فى حقه الجهل ، ووجبت له الحياة فاستحال فى حقه الموت ، ووجب له السمع والبصر فاستحال فى حقه الصمم والعمى ، ووجب له الكلام النفسى فاستحال فى حقه البكم .

وغاية الأمر أن كمالات الله لا تتناهى . لا يحصرها عد ولا يحيط بها حد ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد ﴾[1] .

---

(١) سورة الإخلاص .

مع القدرة الباهرة والعلم المحيط

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

المفـــردات: ﴿ **الساعة** ﴾ : الوقت الذى تقوم فيه القيامة . سميت بذلك لأنها تفجأ الإنسان فى ساعة ما فيموت الخلق بصيحة واحدة ، ﴿ **لمح البصر** ﴾ : رجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، ﴿ **والأفئدة** ﴾ : واحدها فؤاد : وهى القلوب التى هيأها الله للفهم وإصلاح البدن ، ﴿ **والجو** ﴾ : الهواء بين الأرض والسماء .

المناسبـــة

بعد أن بيّن الله من الأدلة القاطعة مايدل دلالة جازمة على أنه الواحد ، أردف ذلك بما يدل على كمال علمه ، فأبان أن العلم بغيوب السموات والأرض ليس إلا له وما يدل على كمال قدرته ، فذكر أن قيام الساعة فى السرعة كلمح البصر أو أقرب ، ثم عاد إلى ذكر الدلائل على توحيده ، وأنه الفاعل المختار ، فذكر منها خلق الإنسان فى أطواره المختلفة ثم الطير المسخر بين السماء والأرض وكيف جعله يطير بجناحين فى جو السماء مايمسكه إلا هو بكامل قدرته .

وهكذا ينتقل بنا النظم الكريم من أدلة التوحيد إلى أدلة القدرة الباهرة والعلم المحيط ، فيقول جل شأنه : ﴿ **ولله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شىء قدير** ﴾ :

يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذا النص الكريم عن كمال علمه وعظيم قدرته على الأشياء ، فهو تعالى يعلم غيب السماوات والأرض ، وإنه مختص بعلم الغيب ، لا شريك له ، فلا إطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلع الله تعالى من يشاء على مايشاء .

قال جل شأنه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول ﴾[1] .

أما عن القدرة : فأمره تعالى بالكاف والنون : ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون ﴾[2] ، ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾[3] . أى فيكون مايريده سبحانه كطرف العين .

(١) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الجن .
(٢) الآية ٤٠ من سورة النحل .
(٣) الآية ٥٠ من سورة القمر .

وهكذا قال هنا : ﴿ **وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير** ﴾ .

وكما قال : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ .

عالم الأجنة من أكبر الأدلة على صدق القرآن الكريم ، وقدرة الله الذى أنزل القرآن ، وعلى صدق سيدنا محمد ﷺ الذى بعث بالقرآن ، فإن الأطوار التى يمر الانسان بها فى الرحم عديدة ومختلفة ، يقول سبحانه : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[٢] .

فيم خُلقنا ؟

خُلقنا فى أرحام يخبر عنها مولانا فيقول : ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[٣] .

فما هو الرحم ؟

يقول عنه علماء الحياة ووظائف الأعضاء : إنه كيس عضلى كمثرى الشكل يقع خلف المثانة أمام المستقيم ، ثم يذكرون أبعاده فيقولون : إن طوله يبلغ حوالى سبعة من السنتيمترات ، وعرضه يبلغ حوالى خمسة من السنتميترات ، وسمكه يبلغ حوالى اثنين من السنتيمترات .

والقرآن الكريم يسمى هذا الرحم قراراً مكيناً : حيث يقول جل شأنه : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون ﴾[٤] .

هل خلقنا وصورنا فى أضواء أو أشعة ؟ كلا بل إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾[٥] . **فلينظر الإنسان مم خلق ؟**

مم خُلقنا : من كائن منوى مفرطح الرأس طويل الذنب ، لا يزيد طوله عن أربعة وخمسين على ألف من المليمتر ، وتبلغ سرعته فى الطريق إلى الرحم : نصف مليمتر فى الثانية الواحدة ، اتصل هذا الكائن المنوى ببويضة الأم عندما شاء الله أن يخلق الانسان .

فكيف كان حالنا فى عالم الأرحام ؟

كنا نتغذى بغذاء الأم ونتنفس بتنفسها ، وقد أمدنا الله بالأوكسجين اللازم ، وجعل درجة

(١) الآية ٢٨ من سورة لقمان .
(٢) الآيات ١٢ - ١٤ من سورة المؤمنون .
(٣) الآية ٦ من سورة آل عمران .
(٤) الآيات ٢٠ - ٢٣ من سورة المرسلات .
(٥) الآية ٦ من سورة الزمر .

الحرارة فى الرحم ثابتة لا تتغير صيفاً أو شتاءاً ، وكان وزن الانسان عندما بلغ سبعة أشهر وهو فى الأرحام – خمسة أرطال وعندما بلغ تسعة أشهر : كان وزنه سبعة أرطال أو ثمانية ، فكيف اجتاز الطريق من الرحم إلى عالم الدنيا ، وهو طريق ضيق دقيق ؟

ذلك أنه لما أراد الله للإنسان الخروج : أمر الرحم أن تتقلص عضلاته ، حيث أصبح الانسان ضيفاً ثقيلاً عليه ، فتقلصت العضلات فعبر الانسان هذا المضيق الدقيق .

والقرآن يجمع تلك الحقائق فى آيات معجزة فيقول : ﴿ من أى شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره ﴾[١] .

فكيف كان حالنا عند الخروج من بطون أمهاتنا ؟

يقول عز وجل ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ :

وبنظرة فاحصة فى قوله تعالى : ﴿ **لاتعلمون شيئاً** ﴾ : يفيد نفى العلم بالكلية .

إذ يقول علماء اللغة : إن النكرة فى سياق النفى : تفيد العموم ، ثم بعد ذلك زوّدنا الله بالعلم والمعرفة ليكون ذلك دليل إنعامه وتفضله ، ولنقابل هذا بالشكر ، والشكر لله : أن تسخر نعم الله فى طاعته وأن لا تستعملها فى معصيته .

قال موسى عليه السلام لربه : (يارب : كيف أشكرك ! قال له ياموسى : تذكرنى ولا تنسانى : إنك إن ذكرتنى : شكرتنى وإن نسيتنى كفرتنى)[٢] .

وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾[٣] .

وقد مر أحد الناس برجل من الصالحين ابتلاه الله بفقد بصره ، وعجز فى يديه ، وهو يردد بلسانه قائلاً (الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيراً من خلقه) فقال له الرجل : فمن أى شيء عافاك قال له : (وهب لى قلباً ذاكراً ولسانا شاكراً) .

ثم أنشد يقول :

وحمدت الله ربى إذ هدانى إلى الإسلام والدين الحنيف

فيذكره لسانى كل وقت ويعرفه فؤادى باللطيف

قوله تعالى : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء مايمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ :

يقول المفسرون فى هذه الآية الكريمة : ينبه الله سبحانه وتعالى عباده للنظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض ، كيف جعله يطير بجناحين فى جو السماء مايمسكه فيه إلا الله بقدرته تعالى ، وجعل فيها

(١) الآيات ١٨ – ٢٠ من سورة عبس .

(٢) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٢٣ .

(٣) الآية ١٥٢ من سورة البقرة .

قوى تفعل ذلك ، وسخر لها الهواء يحملها ويسيرها ، كما قال تعالى فى سورة الملك ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن مايمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير ﴾[١] .

واعلم يا أخى : أن عالم الطير فيه من حقائق الأسرار ودقائق الأخبار ماينبىء عن عظمة الخالق الكبير ، فقد نطق العلم مخبراً عن هذه الأسرار ، كيف جهز الله الطير بها لتلائم حياته فى هذه الدنيا التى يعيش فيها ويطير فى أجوائها ؟

يقول علماء الكون : أن الجهاز الهضمى للطيور يختلف اختلافاً كبيراً عن الجهاز الهضمى فى الحيوانات ، مما يؤكد دقة المرمى ، ويظهر حسن القصد ، ويوضح جميل الصنع ، إذ يمتد من رأس كل طائر جزء صلب خال من الأسنان عظمى التركيب هو المنقار الذى يستخدم فى التغذية ، بدلا من الفم والشفتين والأسنان عند سائر الحيوان ، إذ يبتلع الطير غذاءه بلا مضغ .

وتختلف مناقير الطيور باختلاف أنواع غذائها ، فالطيور الجارحة – كالبوم والحدأة ذات منقار قوى مقوس حاد على شكل خطاف ، وذلك لتمزيق اللحوم .

بينما الأوز والبط لها مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة ، تلائم البحث عن الغذاء فى الطين تحت الماء ، وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

أما الدجاج والحمام وباقى الطيور التى تلتقط الحب من الأرض ، فمناقيرها صغيرة مدببة لتؤدى هذا الغرض .

بينما منقار البجعة – مثلاً – طويل طولا ملحوظاً ، ويمتد من أسفله كيس كبير يشبه الجراب ليكون كشبكة الصياد ، إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسى .

ومنقار الهدهد وأبى قردان طويل مدبب ، أعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديدان ، والتى غالباً ماتكون تحت سطح الأرض .

ويقول العلم إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أى طير من النظرة العابرة إلى منقاره .

أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب ، فلما لم يعط أسناناً فقد خلقت له حويصلة وقانصة تهضم الطعام ، ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام .

تأمل معى : من الذى هيأ لعالم الطير هذا النظام ، وأرشده إلى أن يسلك سُبل الحياة ، كما قال سيد المرسلين ﷺ : (لو توكلتم على الله حق توكله : لرزقكم كما يرزق الطير . تغدو خماصاً وتروح بطاناً)[٢] .

هل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد هذا النظام البديع والإتقان الحكيم :﴿ قال فمن ربكما ياموسى • قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى • قال فما بال القرون الأولى • قال

(١) الآية ١٩ من سورة الملك .

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٣٣ . وابن ماجه فى الزهد : ١٤ . والامام أحمد فى ١ : ٣٠ ، ٥٢ .

علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾[1] .

من النعـم الإلهيـة .

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

المفـــردات : ﴿ **سكناً** ﴾ : أى مسكنا ، ﴿ **والظعن** ﴾ : بالسكون والفتح السير فى البادية لنجعه أو طلب ماء أو مرتع . ﴿ **الأصواف** ﴾ : للضأن ، ﴿ **والأوبار** ﴾ : للابل ، ﴿ **والأشعار** ﴾ : للمعز ، ﴿ **والأثاث** ﴾ : متاع البيت كالفرش والثياب وغيرها ولا واحد له من لفظه ، ﴿ **والمتاع** ﴾ : ما يتمتع وينتفع به فى المتجر والمعاش ، ﴿ **إلى حين** ﴾ : أى إلى انقضاء آجالكم ، ﴿ **والظلال** ﴾ : ما يستظل به من الغمام والشجر والجبال وغيرها ، ﴿ **والأكنان** ﴾ : واحدها كِن وهو الغار ونحوه فى الجبل ، ﴿ **والسرابيل** ﴾ : واحدها سربال : وهو القميص من القطن والكتان والصوف وغيرها وسرابيل الحرب -الجواشن والدروع ، ﴿ **والبأس** ﴾ : الشدة ، ويراد به هنا الحرب .

المناسبـــة

بعد أن أقام سبحانه الأدلة على توحيده ، قفّى على ذلك بذكر ما أنعم به على عباده ، فجعل لهم بيوتاً يأوون إليها وتكون سكنا لهم ، وجعل لهم من جلود الأنعام بيوتاً يستخفون حملها فى أسفارهم ، ويجعلونها خياماً فى السفر والحضر ، وجعل لهم فى الجبال الحصون والمعاقل ، وجعل لهم الثياب التى تقيهم الحر ، والدروع والجواشن من الحديد لتقى بعضهم أذى بعض فى الحرب .

وقصارى هذا أنه امْتنَّ على عباده ، فبدأ بما يخص المقيمين بقوله : و﴿ **جعل لكم من بيوتكم سكناً** ﴾ : ثم بما يخص المسافرين منهم ممَّن لهم قدرة على ضرب الخيام بقوله : ﴿ **وجعل لكم من جلود**

[1] الآيات ٤٩ - ٥٤ من سورة طه .

الأنعام بيوتاً ﴾ : ثم بمن لا قدرة لهم على ذلك ولا يأويهم إلا الظلال بقوله : ﴿ **جعل لكم مما خلق ظلالاً** ﴾ : ثم بما لابد منه لكل أحد بقوله : ﴿ **وجعل لكم سرابيل** ﴾ : ثم بما لا غنى عنه فى الحروب بقوله : ﴿ **وسرابيل تقيكم بأسكم** ﴾ .

وتسير بنا الآيات فى زحفها المبارك ، حيث تذكر لنا نعماً من نوع آخر ، غير الذى قدمته على مائدة الكرم الأُلهى ، فيقول سبحانه : ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ..** ﴾ :

يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذا المشهد الرائع عن تمام نعمه على عباده ، بما جعل لهم من البيوت ، التى هى سكن لهم ، يأوون إليها ويستترون بها ، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع ، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً يستخفون حملها فى أسفارهم ، ليضربوها لهم فى إقامتهم ، فى السفر والحضر، ولهذا قال : ﴿ **تستخفونها يوم ظعنكم** ﴾ : أى فى أسفاركم ﴿ **ويوم إقامتكم** ﴾ :

﴿ **ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين** ﴾ : ومن ﴿ **أصوافها** ﴾ : أى من الغنم ، ﴿ **وأوبارها** ﴾ : أى الابل ، ﴿ **وأشعارها** ﴾ : أى المعز ، والضمير عائد على الأنعام .

﴿ **أثاثا** ﴾ : أى تتخذون منه أثاثا ، بمعنى كل ماينتفع به من أثاث البيت ، وهو أعم من المال والثياب ، إذ أنه قد يكون مصدراً للربح فى التجارة ، وتصنع منه البُسط والسجاد .

وقوله تعالى : ﴿ **ومتاعا إلى حين** ﴾ : أى إلى أجل مسمى ، ووقت معلوم .

وقوله تعالى : ﴿ **والله جعل لكم مما خلق ظلالا** ﴾ : أى مما خلق من الأنعام والبيوت والجبال والأشجار ظلالاً ، تستظلون بها من وهج الشمس وزمهرير البرد .

﴿ **وجعل لكم من الجبال أكنانا** ﴾ : ومغارات تأوون إليها من العدو ، أو خوف الشمس ، أو زحمة الناس ﴿ **وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر** ﴾ : من القطن والكتان والصوف وغيرها ﴿ **وسرابيل تقيكم بأسكم** ﴾ : كالدروع من الحديد المصفح ، وغير ذلك مما يستعمل فى الحرب .

وقوله تعالى : ﴿ **كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون** ﴾ : أى هكذا جعل لكم ماتستعينون به على أمركم ، وما تحتاجون إليه ليكون لكم عونا على طاعته وعبادته .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه السورة التى نحن بصدد الحديث عنها - وهى سورة النحل - تسمى أيضاً سورة « النعم » وذلك لما اشتملت عليه من الآلاء العظيمة والنعم الكريمة .

قوله تعالى : ﴿ **فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين** ﴾ : هو كقوله جل شأنه ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾[2] ، ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾[3] ، ﴿ وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾[4] .

(١) الآية ٩٩ من سورة المائدة .
(٢) الآية ٢٠ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٢٢ من سورة الغاشية .
(٤) الآية ٤٥ من سورة ق .

قوله تعالى : ﴿ **يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون** ﴾ : كقوله جل شأنه : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار ﴾[1] .

فاللهم ارزقنا شكر نعمتك ، فإن شكرها واجب ، وتوفيقك لنا لشكر نعمتك نعمة ، يجب أن نشكرها .

لمحـــة قرآنيـــة

إنما أردنا بتلك اللمحة أن نوضح نقطتين هامتين يلاحظهما القارىء لكتاب الله العزيز بعين البصيرة .

فهذه السورة الكريمة اشتملت على مشاهد عديدة من النعم العظمى ، وقد لاحظنا أنها كلما ذكرت جملة من النعم : عقبت عليها بتعقيب يظهر طبائع الإنسان ، الذى لا يقابل هذه النعم بما يليق من شكر الإله الواحد ، وذلك كما جاء فى سورة الرحمن ، عقبت كل نعمة ب ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وفى سورة « النحل » جاء عقب المشهد الأول من النعم قوله تعالى : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ :

ثم نطق القرآن الكريم بقوة وصراحة فقال : ﴿ **فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة** ﴾ ، ثم بعد ذلك عرضت السورة مشهداً آخر من النعم ، وذلك من أول قوله تعالى : ﴿ **والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون** ﴾ : إلى قوله ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات** ﴾ .

ثم عقب على هذا المشهد من النعم بما يظهر طبائع الناس من إعراضهم عن الشكر ، فقال سبحانه : ﴿ **أفالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون** ﴾ ؟

ثم استعرضت السورة مشهدا ثالثا من النعم ، وذلك من أول قوله تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً** ﴾ : إلى قوله : ﴿ **كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون** ﴾ .

ثم عقب على هذا المشهد الكريم بما يظهر طبائع الناس من انصرافهم عن شكر المنعم ، فقال سبحانه ﴿ **يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون** ﴾ :

وقد ذكروا أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فسأله ، فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكناً** ﴾ : فقال الأعرابى : نعم . قال : ﴿ **وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا** ﴾ : الآية ، قال الأعرابى : نعم . ثم قرأ عليه : وكل ذلك يقول الأعرابى : نعم . حتى بلغ : ﴿ **كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون** ﴾ : فولّى الأعرابى ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون** ﴾ :

---

(١) الآية ٣٤ من سورة إبراهيم .

تلك ملاحظــة أولى :

وقد أظهرت لنا موقف الإنسان من نعم ربه ، وكان ينبغى عليه أن يكون مُقِراً بالفضل،عارفاً بما يكافىء جزيل النعم .

وقد اختتمت هذه السورة بموقفين كريمين ، لنبيين عظيمين ، وقفا موقف الشكر والصبر : نبى الله إبراهيم ، نبى الله محمد ، عليهما الصلاة والسلام .

يقول القرآن فى حق إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾[٢] .

ويقول فى حق خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ : ﴿ **واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون** ﴾[١] .

فما أجمل الشكر عند الرخاء ، والصبر عند الضراء .

وكما قال سيد المرسلين محمد ﷺ (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله لهو خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[٣] .

أما الملاحظة الثانية :

فقد سبق أن قررنا أن القرآن الكريم – فى مواضع كثيرة – بعد ما يذكر نعم الله فى الدنيا على عباده ، ينبه عقولهم ، ويشد أفئدتهم إلى ما بعد الدنيا من البعث والجزاء ، وقد سقنا الشواهد الدالة على ذلك وهذا مشهد آخر من تلك المشاهد .

فالله يقول – بعد ماذكر النعم الجزيلة والآلاء الجليلة – أخذ بأيدينا ليوقفنا فى عرصات القيامة وساحات الحساب ، فقال سبحانه ﴿ **ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون * وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون * وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك ، فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون * وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون * الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون** ﴾ .

---

(١) الآيات ١٢٠ – ١٢٢ من سورة النحل . (٢) الآية ١٢٧ من سورة النحل .

(٣) أخرجه مسلم فى الزهد : ٦٤ . والامام أحمد فى ٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ . وفى ٦ : ١٥ .

من مشاهد القيامة

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

المفردات : ﴿ **الأمة** ﴾ : الجيل من الناس ، ﴿ **وشهيد كل أمة** ﴾ : نبيها ، ﴿ **ثم لا يؤذن للذين كفروا** ﴾ : أى إنهم يستأذنون فلا يؤذن لهم ، ويقال استعتبه وأعتبه : إذا رضى عنه ، قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال وسناكرة الموجدة ، وعاتبه معاتبة وعتابا وأعتبه : سره بعد ماساءه ، ﴿ **ينظرون** ﴾ : أى يمهلون ويؤخرون ، ﴿ **والشركاء** ﴾ : الأصنام والأوثان والشياطين والملائكة ، ﴿ **وندعو** ﴾ : نعبد ، ﴿ **والسلم** ﴾ : الاستسلام والانقياد ، ﴿ **وضل** ﴾ : ضاع وبطل والمراد بهؤلاء أمته الحاضر منهم عصر التنزيل ومن بعدهم إلى يوم القيامة ، ﴿ **وتبيانا** ﴾ : أى بيانا لأمور الدين إما نصا فيها أو ببيان الرسول واستنباط العلماء المجتهدين فى كل عصر .

المناسبة

وهكذا – وجدنا أنفسنا قد انتقلنا من بطون الأمهات ، وقمنا بتمثيل أدوارنا على مسرح الحياة ، وتمتعنا بنعم الله .. ثم انتقلنا بعد ذلك إلى هذا المشهد القرآنى الذى يأخذ بالألباب ، ويجعل القارىء يستولى عليه العجب حيث يجد هذه الصورة الرهيبة فى عرصات القيامة : الظالمون يرون العذاب ، فلا يخفف عنهم ، والمشركون يرون الشركاء ، فيلزمونهم الحجة ، والذين كفروا وصدوا عن سبيل الله يضاعف لهم العذاب .

وكل نبى يشهد على أمته بأنه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، والكافرون قد انقطعت أعذارهم ،

وبطلت حججهم ، فلا يؤذن لهم ، كما قال تعالى : ﴿ هذا يوم لاينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا هم يستعتبون** ﴾ : أى لايطلب منهم العتبى - أى الرضا .

إذ أنه لا فائدة من العتاب ، مع العزم على السخط وعدم الرضا * وهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم ، فقد فات زمنه فى الدنيا ، وذهبت السكرة ، وحلت الفكرة ، وانفض السوق ، فربح فيه الرابحون وخسر فيه الخاسرون .

فإذا كانت الدنيا دار عمل ولا حساب ، فالآخرة دار حساب ولا عمل ، ويومئذ لا ينفع التمنى ، فلا يقبل من أحدهم أن يقول : ﴿ ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ﴾[٢] ، ﴿ يا ليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * ياليتها كانت القاضية ﴾[٣] ، ﴿ ياليتنى كنت ترابا ﴾[٤] ، ﴿ ياليتنى قدمت لحياتى ﴾[٥] ، ﴿ ياليتنا نُرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾[٦] .

عندئذ يقول لهم : ﴿ أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير .فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾[٧] .

فبادر ياأخى بالرجوع إلى الملك الديان قبل فوات الأوان ، حيث لا ينفع الندم .

عجوز تمنت أن تكون صبية ... وقد نحل الجنبان واحد ودب الظهر

فسارت إلى العطار تبغى شبابها ... وهل يصلح العطار ماأفسد الدهر ؟

قوله تعالى : ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ﴾ :

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم فى الدار الآخرة ، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى .

﴿ **ثم لايؤذن للذين كفروا** ﴾ : أى فى الاعتذار ، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله : ﴿ هذا يوم لاينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾[٨] ، فلهذا قال سبحانه : ﴿ **ولا هم يستعتبون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ﴾ :

أى لا يفتر عنهم ساعة ولا هم يؤخرون عن تنفيذ حكم الله فيهم ، ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾[٩] ، ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى ﴾[١٠]

(١) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة المرسلات .
(٢) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة الفرقان .
(٣) الآيات ٢٥ - ٢٧ من سورة الحاقة .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النبأ .
(٥) الآية ٢٤ من سورة الفجر .
(٦) الآية ٢٧ من سورة الانعام .
(٧) الآية ٣٧ من سورة فاطر .
(٨) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة المرسلات .
(٩) الآية ٥٣ من سورة الكهف .
(١٠) الآية ٤٥ من سورة الشورى .

فاتق دعوة المظلوم ، ولو من كافر ، فالظلم ظلمات يوم القيامة – ومن كفر فعليه كفره .

لا تظلمن إذا كنت مقتدرا فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك ، وعينُ الله لم تنم !

المحكمة الإلهية العليا :

قوله تعالى : ﴿ **وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك * فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون * وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ :

هذه وقفة فى محكمة الجنايات الإلهية العليا للحكم فى أكبر جناية ترتكب ، ألا وهى : الشرك ، الذى نص عليه قانون الله تعالى قائلا : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به * ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء * ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾[١] .

وقد دارت المناقشة بين المشركين والآلهة فى هذه الجلسة العاصفة على النحو التالى :

قال المشركون : ربنا هؤلاء الذين كنا ندعو من دونك .

فرد الشركاء قائلين : إنكم لكاذبون !

وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾[٢] .

ومصداق قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزّا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾[٣] .

وقد قال القرآن الكريم على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾[٥] .

فماذا يقول المشركون بعد مالزمتهم الحجة ، وحق عليهم القول إنهم كما قال الله : ﴿ **وألقوا إلى الله يومئذ السلم** ﴾ :

أى ذلّوا واستسلموا يومئذ ، فلا أحد إلا سامع مطيع ، كما قال تعالى : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾[٦] أى ما أسمعهم وما أبصرهم ! ! وهو أسلوب من التعجب .

---

(١) الآية ٤٨ من سورة النساء .
(٢) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الأحقاف .
(٣) الآيتان ٨١ ، ٨٢ من سورة مريم .
(٤) الآية ٢٥ من سورة العنكبوت .
(٥) الآية ٦٤ من سورة القصص .
(٦) الآية ٣٨ من سورة مريم .

وكما قال تعالى : ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ﴾[1] أى خضعت ، وذلت واستكانت ، وأنابت ، واستسلمت :﴿ وقد خاب من حمل ظلما ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ : أى ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه ، افتراء على الله فلا ناصر لهم ، ولا معين ولا مجير .

وبعد أن تمت المحاكمة : أصدرت محكمة العدل الإلهية الكبرى حكمها المبرم الذى لا يقبل استئنافا ولا نقضا ، فقال سبحانه : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾[2] أى عذابا على كفرهم ، وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق ، كقوله تعالى : ﴿ وهم ينهون عنه وينأون عنه ﴾[3] أى ينهون الناس عن اتباعه ، ويبتعدون هم عنه أيضاً ﴿ وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ .

وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى درجاتهم – فإن الجنة درجات ، والنار دركات : ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ **ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾ .

اختتم الله تبارك وتعالى هذا المشهد المهيب بتلك الآية الكريمة ، هذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة « النساء » فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد * وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾[5] فقال له رسول الله ﷺ : (حسبُك * فقال ابن مسعود : فالتفتُّ إليه ، فإذا عيناه تذرفان الدمع)[6] .

هذا خطاب إلى صاحب اللواء المعقود ، والمقام المحمود ، والحوض المورود .. إلى رسول الله ﷺ ، الذى سيشهد على هؤلاء جميعاً ، فهو خاتم الأنبياء ، والرسل ، الصادق الأمين وكتابه هو المهيمن على جميع الكتب ، الذى جعله الله هدى ورحمة للعالمين : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم * ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾[7] ، ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس * ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾[8] .

فكيف كان القرآن تبيانا لكل شىء ؟

يجيب على هذا السؤال صاحب « الكشاف » رحمه الله فيقول :

---

(١) الآية ١١١ من سورة طه . (٣) الآية ٢٦ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٨٨ من سورة النحل . (٤) الآية ٣٨ من سورة الأعراف . (٥) الآية ٤١ من سورة النساء .
(٦) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة : ٢٥ ، وفى الجهاد : ٧ . وفى تفسير سورة ٤ : ٩ . والترمذى فى الجنائز : ١٤ .
(٧) الآية ٩ من سورة الإسراء . (٨) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

فإن قلت : كيف كان القرآن تبيانا لكل شيء ؟ قلت : المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين حيث كان نصا على بعضها ، وإحالة على السنة ، حيث أمر الله فيه باتباع رسوله ﷺ وطاعته ، ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾[١] ، ﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى ﴾[٢] .

وحثا على الإجماع في قوله : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين * نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾[٣] .

وقد رضى رسول الله ﷺ لأمته اتباع صحابته واقتفاء آثارهم في قوله ﷺ : (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) .

وقد اجتهدوا وقاسوا ووطئوا طرق القياس والاجتهاد ، فكانت السنة ، والاجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيان الكتاب فمن ثم : كان القرآن تبيانا لكل شيء .

صدقت ياذا الجلال والإكرام . يامن قلت : ﴿ مافرطنا في الكتاب من شيء ﴾[٤] وقلت : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾[٥] ، وقلت : ﴿ ماآتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

وصدق رسولك الكريم ، إذ يقول : « ولقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولو كان أخي موسى حيا ماوسعه إلا اتباعي » وإذ يقول : ﴿ أوتيت القرآن ومثله معه ﴾[٦] .

فما من نظام مستقيم وعادل في هذه الدنيا إلا نظام الإسلام : ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾[٧] ، ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾[٨] .

* إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

(١) الآية ٨٠ من سورة النساء .
(٢) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة النجم .
(٣) الآية ١١٥ من سورة النساء .
(٤) الاية ٨٠ من سورة النساء .
(٥) الآية ٧ من سورة الحشر .
(٦) أخرجه الامام أحمد في ٢ : ١٢٩ ، ٤ : ١٣١ .
(٧) الآية ٤٢ من سورة فصلت .
(٨) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .

المفــــردات ﴿ **العدل** ﴾ : لغة : المساواة فى كل شيء بلا زيادة ولا نقصان فيه ، والمراد به هنا المكافأة فى الخير والشر ، ﴿ **والاحسان** ﴾ : مقابلة الخير بأكثر منه ، والشر بالعفو عنه ، ﴿ **وإيتاء ذى القربى** ﴾ : أى إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر ، ﴿ **والفحشاء** ﴾ : ماقبُح من القول والفعل ، فيدخل فيه الزنا وشرب الخمر والحرص والطمع والسرقة ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المذمومة ، ﴿ **والمنكر** ﴾ : ماتنكره العقول من دواعى القوة الغضبية كالضرب الشديد والقتل والتطاول على الناس ، ﴿ **والبغى** ﴾ : الاستعلاء على الناس والتجير عليهم بالظلم والعدوان ، ﴿ **والوعظ** ﴾ : التنبيه إلى الخير بالنصح والارشاد ، ﴿ **والعهد** ﴾ : كل مايلتزمه الانسان بإختياره ، ويدخل فيه الوعد ، ﴿ **ونقض اليمين** ﴾ : الحنث فيها وأصله فك أجزاء الجسم بعضها من بعض ، ﴿ **وتوكيدها** ﴾ : توثيقها والتشديد فيها ، ﴿ **كفيلا** ﴾ : أى شاهدا ورقيباً ، ﴿ **والغزل** ﴾ : ماغزل من صوف ونحوه ، ﴿ **والقوة** ﴾ : الابرام والاحكام ، ﴿ **والأنكاث** ﴾ : واحدها نكِثْ وهو مانكِث فتله وينقض بعد غزله ، ﴿ **والدخل** ﴾ : المكر والخديعة وقال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحا فهو دخل ، ويراد به أن يظهر المرء الوفاء بالعهد ويبطن النقض ، ﴿ **أربى** ﴾ : أى أكثر وأوفر عدداً .

بعد مابينت الآية السابقة شهادة الرسول ﷺ ، عقبت بأن الله تعالى نزل عليه الكتاب الكريم ليكون تبيانا وتوضيحا وسراجا منيرا ، يضيء مسالك الحياة ، وليكون هاديا ، ورحمة ، وبشرى للمسلمين ، انتقل النظم الكريم بعد ذلك يبين لنا القواعد الأكيدة الوطيدة والأركان التى لاتهتز ولا تختل مابقيت الدنيا ، ويوم يقوم الحساب ، فقال سبحانه : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ :

هذا النص الكريم الخالد ورد فيه الأمر بثلاثة أشياء ، والنهى عن ثلاثة أشياء .

يقول ابن مسعود رضى الله عنه : إن أجمع آية فى القرآن فى سورة « النحل » هى قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ : الآية .

وقد ذكروا أن الحكيم العربى ﴿ **أكثم بن صيفى** ﴾ : أرسل وفدا من أتباعه إلى رسول الله ﷺ يسألونه ، فالتفوا به ، فقالوا : نحن رسل أكثم بن صيفى ، وهو يسألك : من أنت ؟ وما أنت ؟ فقال النبى ﷺ (أما من أنا ؟ فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله) ، قال : ثم تلا عليهم هذه الآية : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ : الآية ، قالوا : ردد علينا هذا القول . فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتوا أكثم فقالوا : أبى أن يرفع نسبه ، فسألنا عن نسبه ، فوجدناه زاكى النسب ، شريفاً ، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعهن أكثم قال : « إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملائمها ، فكونوا فى هذا الأمر رؤوسا ، ولا تكونوا فيه أذناباً » .

العـدل ونتائجـه ، والظلـم وعواقبـه

لقد أمر مولانا تبارك وتعالى بالعدل أولاً ، والإحسان ثانيا ، ثم بإيتاء ذى القربى .

والعدل هو القاعدة الأصلية فى بناء الأمم : إذ هو وضع الشيء فى موضعه ، وإقامة الميزان بالقسط ، وإعطاء كل ذى حق حقه .

ولما كان العدل هو الذى يقيم الأمم ويقوّمها : فإن الظلم يدمّرها ويهلكها وقد تضافرت آيات الكتاب العزيز على ذلك .. قال جل جلاله : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾(١) ، وقال : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾(٢) ، وقال : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾(٣) وقال سبحانه : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾(٤) وقال : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾(٥) .

وهكذا تقوم الأمم بالعدل ، وتدمر بالظلم .

الإحســـان

أما الاحسان : فهو زيادة عن العدل ، أى إذا كان العدل أساساً فى الإحسان تفضل وكرم ، ولذا : فإن الله تعالى يقول فى شأن العدل : ﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾(٦) .

ويقول فى شأن الإحسان : ﴿ وإذا ماغضبوا هم يغفرون ﴾(٧)

ويقول فى شأن العدل : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾(٨) .

وفى شأنه الإحسان : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾(٩) .

ويقول فى شأن العدل : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ماعليهم من سبيل ﴾(١٠)

وفى شأن الإحسان ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾(١١).

وقد قال جل شأنه : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا * اعدلوا هو أقرب للتقوى * واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾(١٢).

فبالعدل قامت السماوات والأرض وبالعدل تقوم الحياة الهادئة المطمئنة .. إذ هو ميزان الحياة

(١) الآية ١٣ من سورة يونس .
(٢) الآية ١١٧ من سورة هود .
(٣) الآية ٥٩ من سورة الكهف .
(٤) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٥) الآية ٤٨ من سورة الحج .
(٦) الآية ٣٩ من سورة الشورى .
(٧) الآية ٣٧ من سورة الشورى .
(٨) الآية ٤٠ من سورة الشورى .
(٩) الآية ٤٠ من سورة الشورى .
(١٠) الآية ٤١ من سورة الشورى .
(١١) الآية ٤٣ من سورة الشورى .
(١٢) الآية ٨ من سورة المائدة .

الصحيحة به تطمئن النفوس وتنشرح الصدور ، ويأمن الأفراد على حقوقهم والحكام على أنفسهم وأن أى مجتمع يزول من بين أفراده العدل وتقوض أركانه لهو جدير بالمهانة وحقيق بالزلة إذ يقول المعصوم ﷺ فيما يرويه معاوية رضى الله عنه : (لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى) .

فالعاقل من حفظ نفسه من الجور وعدل مع ربه وخالقه ورازقه فعمل ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه ، وراقبه فى السر والعلن وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وعندما أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بتاج كسرى وسواريه قال : إن الذى أدى هذا لأمين فقال له على ابن إبى طالب كرم الله وجهه : (عففت فعفوا ولو رتعت لرتعوا) .

وهذه صورة مشرقة من حياة الفاروق رضى الله عنه ، فقد رآه رجل من الفرس ينام فى ظل شجرة وهو مستغرق فى نوم عميق ، دون أن يكون حوله من يحرسه ، ذلك لأنه أقام العدل فوقف الفارس يعجب : أهذا أمير المؤمنين ؟ ثم قال : « حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر »

وهذا المشهد يصوره شاعر النيل فيقول :

وراع صاحب كسرى أن رأى عمراً ... بين الرعية عطلا وهو راعيها
فوق الثرى تحت ظل الروح مشتملا ... ببردة كاد طول العهد يبليها
رآه مستغرقا فى نومه ، فرأى ... فيه الجلالة فى أسمى معانيها
وحسبه بملوك الفرس أن لها ... سوراً من الجند والأحراس يحميها
فقال قولة حق ، أصبحت مثلا ... وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لما أقمت العدل بينهمو ... فنمت نوم قرير العين هانيها
قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها ... بفضل ربك حصناً من أعاديها

ولذلك كان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يقول : « لو عثرت بغلة بالعراق لسألنى الله عنها لم لا تصلح لها الطريق يا عمر » ؟ !

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (يوم من إمام عادل : أفضل من عبادة ستين سنة وحدٌّ يقام فى الأرض بحقه : أزكىَ من مطر أربعين صباحاً)[1] .

وروى عنه ﷺ أنه قال : (أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منى مجلسا إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منى مجلسا إمام جائر)[2] .

إذا كانت هذه هى مكانة العدل : فإن الاحسان فيه زيادة عن العدل ، وفضل ورحمة وكرم .

---

(١) أخرجه النسائى فى السارق : ٧ . وابن ماجة فى الحدود : ٣ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٦٢ ، ٤٠٢ .
(٢) أخرجه الترمذى فى الأحكام : ٤ .

وقد يأتى الإحسان بمعنى آخر كما بين ذلك الصادق الأمين محمد ﷺ فى قوله : (الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1] .

فهذا معنى يرتفع بالنفس من غياهب الظلمات ، وفلول الدجى وحضيض الغبراء ، إلى قمة شماء باذخ العلياء : إذ اشتمل هذا المعنى على درجتين : درجة المشاهدة : (أن تعبد الله كأنك تراه) ودرجة المراقبة (فإن لم تكن تراه : فإنه يراك) .

وبهذا يعمل الضمير الحى عمله .. فقد رأى أبو هريرة رضى الله عنه رجلا يغش اللبن بالماء فقال له : ياهذا : « ماذا تقول إذا قيل لك يوم القيامة خلص اللبن من الماء » ؟

نعم : إن الضمير هو السلطة التى ترفع النفس إلى مراقبة ربها وخالقها والاستشعار بهيمنة سلطانه .

وهل ننسى موقف هذه الفتاة التى كانت أمها تغش اللبن ونهاها أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه عن هذا الفعل ولكنها عادت وغشت اللبن فقالت لها ابنتها : « ياأماه ألم ينهك أمير المؤمنين عن هذا ؟ **فقالت لها :وهل يرانا أمير المؤمنين ؟قالت لها :إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فإن الله رب العالمين يرانا ! »** وكان عمر فى هذه الأثناء يمر يتفقد الرعية فرآها تغش اللبن فقال لها : « ياعجوز ألم أنهك عن غش اللبن ؟ » قالت : والله ماغششته ياأمير المؤمنين وإذا بصوت (الضمير) ينبعث من داخل هذا الكوخ : صوت ابنتها يقول لها : « ياأماه أتغشين المسلمين وتحنثين فى اليمين وتكذبين على أمير المؤمنين ؟ » وأخذت هذه الكلمات طريقها إلى قلب عمر رضى الله عنه ، ولها رنين قوى أنقى من رنين الذهب ، فهل يقف عمر منها موقفاً سلبياً ؟ كلا ! لقد زوجها لابنه (عاصم) فأنجبت منه فتاة اسمها (ليلى) ، هذه الفتاة تزوجت عبد العزيز بن مروان فأنجبت منه خامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد . العادل . الرحيم ذلك يوم مات قال رعاة الغنم فى شواهق الجبال : « اليوم مات عمر » قيل وما أدراكم بموته : قالوا : « لأن الذئب قد عدا على الغنم وما عهدناه كذلك فى حياة عمر » ولما تحقق الناس من الخبر وجدوه قد مات فعلا .

وقد سئل عمر بن عبد العزيز فى حياته عن هذه الظاهرة العجيبة وهى أن الذئب أصبح يرعى الغنم كأنه كلبها وحارسها فقال لهم : « أخلصت مابينى وبين ربى فأخلص الله مابين الذئب والغنم » .

هكذا صارت بنت بائعة اللبن : فى بيت الإمارة ، وهكذا صارت جدة لأمير المؤمنين .

وهكذا يقوم الإيمان ببناء النفوس ويشيد صروحها .

صدقت يا سيدى يا رسول الله : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٣١ : ٢ ، وفى الايمان : ٣٧ . ومسلم فى الايمان : ٥٧ . وابوداود فى السنة ١٦ . والترمذى فى الايمان : ٤ . وابن ماجة فى المقدمة : ٩ . والامام أحمد فى ١ : ٢٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٣١٩ ، وفى ٢ : ١٠٧ ، ٤٢٦ ، وفى ٤ : ١٢٩ ، ١٦٤ .

صلـــة الرحـــم

قوله تعالى : ﴿ وإيتاء ذى القربى ﴾ :

أيها القارىء الكريم بإقامة العدل تحيا النفوس ، وبالإحسان يرتفع شأنها ، وبإيتاء ذى القربى يعم الإخاء والرحمة ، فليس هناك مكانة تعدل صلة الرحم وأول الأرحام فى (كشف) الصلة : الوالدان ، يليهما الأقرب فالأقرب ، ولمكانة الأرحام العظيمة عند الله فقد عُطِفَت على لفظ الجلالة فى قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾[1] .

وقد سأل عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه سيدنا رسول الله ﷺ فقال : أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : (الصلاة على وقتها) قلت : ثم أى ؟ قال : (بر الوالدين) قلت : ثم أى ؟ قال : (الجهاد فى سبيل الله)[2] .

وقد بين الحديث الشريف الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ مكانة الوالدين على أولادهما حيث يقول : « لايجزى ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه »[3] .

وهذه توجيهات نبوية ، وإرشادات إسلامية ، تحث على صلة الرحم لما فيها من الفضائل والمزايا .

يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »[4] .

تأمل معى أيها القارىء الكريم مكانة الرحم عند الله تبارك وتعالى فى هذا الحديث الشريف الذى يقول فيه رسول الله ﷺ : (إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال : نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى قال فذاك لك)[5] ثم قال ﷺ : اقرءوا إن شئتم ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾[6] .

وفى رواية للبخارى : فقال الله تعالى : ﴿ من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته ﴾ .

فعليك بصلة أرحامك ، وحاذر من قطيعتها فإن الله تعالى جل جلاله يقول فى الحديث القدسى

---

(١) الآية الأولى من سورة النساء .

(٢) أخرجه البخارى فى الادب : ١ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٢ .

(٣) أخرجه مسلم فى العتق : ٢٥ . وأبوداود فى الادب : ١٢٠ . والترمذى فى البرة٨ . وابن ماجة فى الأدب : ١ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٣٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٦ ، ٤٤٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى الادب : ٣١ ، ٨٥ ، وفى الرقاق : ٢٣ . ومسلم فى اللقطة : ١٤ ، وفى الايمان : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ . وابوداود فى الاطعمة : ٥ ، والترمذى فى البر : ٤٣ ، وفى القيامة : ٥٠ . وابن ماجة فى الادب : ٥ . والدرامى فى الأطعمة : ١١ . والامام مالك فى صفة النبى : ٢٢ . والامام أحمد فى : ٢ : ١٧٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٤٣٣ ، ٤٦٣ ، وفى ٣ : ٧٦ ، وفى ٤ : ٣١ ، وفى ٥ : ٤١٢ ، وفى ٦ : ٦٩ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

(٥) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٤٧ ، وفى الادب : ١٣ ، وفى التوحيد : ٣٥ . ومسلم فى البر : ١٦ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٣٠ ، ٣٨٣ ، ٤٠٦ ، ٤٥٥ .

(٦) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة محمد .

(أنا الله وأنا الرحمن وقد اشتققت للرحم اسماً من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته)[١] .

وإذا كانت الآية الكريمة قد أمرت بصلة ذوى القربى وإيتائهم حقهم فلأنهم أولى الناس بالمعروف قال عليه الصلاة والسلام : (الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان : صلة وصدقة)[٢] .

وليس معنى هذا أن ذوى القربى هم المخصصون بالصلة بل هم أولى الناس بالصلة لأن هناك رحماً عامة : هم كل من يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهؤلاء لهم حقوق على كل مسلم ومسلمة كأن يعوده إذا مرض ، ويشيعه إذا مات ، ويسلم عليه إذا مر به ، وينصحه إذا استنصحه ، ويجيبه إذا دعاه ، ويفرح له إن كان فى خير ، ويحزن من أجله إن كان فى شر .

وهناك صلة إنسانية أوسع دائرة تربط الإنسان مع غيره من الناس رباطاً يقوم على العدل والإنصاف دون ظلم أو اعتداء : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾[٣] .

إن قوله تعالى ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى** ﴾ :

لقول يفيض جلالاً وكمالاً ويشع ضياء وبهاء .

لقد اشتملت تلك الآية الكريمة على أوامر ثلاثة ونواه ثلاثة :

أما الأوامر الثلاثة فهى :

العدل – والإحسان – وإيتاء ذى القربى .

وأما النواهى الثلاثة فهى :

الفحشاء – والمنكر – والبغى .

فالبغى والعدل نقيضان لا يجتمعان .

والإحسان والمنكر : ضدان لا يلتقيان .

إيتاء ذى القربى والفحشاء : أمران متقابلان لا يلتقيان .

فالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى : فضائل .

والفحشاء والمنكر والبغى : رذائل .

وفى لفظ ﴿ **الفحشاء** ﴾ : مايشعر بما فحش وعظم من الذنوب بحيث تجاوز كل لياقة ولذلك نرى القرآن الكريم يعبر عن بعض الذنوب بلفظ ﴿ **الفحشاء** ﴾ : فيقول فى نكاح زوجة الأب : ﴿ ولا

(١) أخرجه الترمذى فى البر : ١٦ . والامام أحمد فى ٦ : ٦٢ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الزكاة : ٢٦ . والنسائى فى الزكاة : ٢٢ ، ٨٢ . وابن ماجة فى الزكاة : ٢٨ . والدارمى فى الزكاة : ٣٨ . والامام أحمد فى ٤ : ١٧ ، ١٨ ، ٢١٤ .

(٣) الآية ٨ من سورة الممتحنة .

تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ﴾[١] .

ويقول فى شأن الزنا ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾[٢] .

ويقول فى شأن الشذوذ الجنسى : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴾[٣] .

كل هذه الكبائر من الذنوب فحشت وزاد خطرها ، من أجل ذلك ورد النهى عنها فى كل صورها قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾[٤] وقال جل شأنه : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾[٥] .

﴿ **أما المنكر** ﴾ : فهو ما تنكره الأذواق السليمة ولا يقرّه العرف الصحيح .

ذلك لأن المنكر ضد المعروف وقد ورد فى آيات كثيرة كما فى قوله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[٦] .

وفى وصية لقمان لابنه : ﴿ يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ﴾[٧] .

وفى قوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[٨] .

وبنظرة فاحصة فى الكلمتين : تستطيع أن تدرك الفرق الشاسع بينهما : ف « المعروف » فى ظهوره ووضوحه : كالشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها .

والمنكر فى قبحه وسوء فعله ونفور النفوس السليمة منه : كظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج الانسان يده لم يكد يراها :

فأكل مال اليتم : منكر ، والسحر : منكر ، وقذف المحصنات الغافلات : منكر ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها : منكر ، والتولى والفرار من الجهاد : منكر .

والغيبة والنميمة وقطع الطريق كل هذه منكرات ، نهى الله عنها وشدد الوعيد لمقترفيها .

﴿ **أما البغى** ﴾ : فهو تجاوز الحد وترك العدل والإنصاف مما يترتب عليه الظلم وأكل أموال الناس بالباطل .

وكلمة الظلم من أبشع الكلمات وأقساها وقعاً على النفس حتى كان اصطدام النفوس بها

(١) الآية ٢٢ من سورة النساء .
(٢) الآية ٣٢ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٥٤ من سورة النمل .
(٤) الآية ١٥١ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ٣٣ من سورة الأعراف .
(٦) الآية ٦٧ من سورة التوبة .
(٧) الآية ١٧ من سورة لقمان .
(٨) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران .

كاصطدام مطارق الحديد بأوانى الفخار .

ويكفى للدلالة على ذلك أن نقرأ قول الله تبارك وتعالى فى حق الظالمين ﴿ وما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾[١] .

وقوله جل شأنه : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ فما للظالمين من نصير ﴾[٣] .

استمع معى إلى هذا الحديث القدسى الجامع الذى رواه أبو ذر الغفارى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ عن رب العزة جل جلاله إذ يقول : [يا عبادى : إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا .

يا عبادى : كلكم ضال إلا من هدية فاستهدونى أهدكم .

يا عبادى : كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم .

يا عبادى : كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم .

يا عبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم .

يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضُرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم : مازاد ذلك فى ملكى شيئاً .

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته مانقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

يا عبادى : إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه] [٤] .

قال سعيد : كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبته . رواه مسلم .

لقد سقنا هذا الحديث بطوله لما اشتمل عليه من عظائم الأمور ويكفى أن تقف عند قوله جل شأنه : [حرمت الظلم على نفسى] .

سبحان صاحب العدل المطلق والعظمة الإلهية .

ولقد أخبر الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه عن بشاعة الظلم يوم القيامة فقال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم : حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » [٥] رواه مسلم .

(١) الآية ١٨ من سورة غافر .
(٢) الآية ٣٨ من سورة مريم .
(٣) الآية ٣٧ من سورة فاطر .
(٤) أخرجه مسلم فى البر : ٥٥ . والامام أحمد فى ٥ : ١٦٠ .
(٥) أخرجه مسلم فى البر : ٥٦ . والامام أحمد فى ٢ : ١٦٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٤٣١ ، وفى ٣ : ٣٢٣ .

تأمل معى هذه العدالة المطلقة فى رد الحقوق إلى أصحابها يوم يقوم الناس لرب العالمين .

جاء فى الحديث الشريف : (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)[١] رواه مسلم .

ولحرمة الحقوق وشدة صيانة الإسلام لها : وقف الرسول ﷺ فى حجة الوداع يؤكد هذا المعنى فيقول : (إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم قال : اللهم اشهد (ثلاثاً) ويلكم - أو ويحكم - انظروا : لاترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)[٢] .

ثم انظر - بعد ذلك - إلى من يغتصب حق أخيه المسلم بغير حق فيغير حدود الأرض - مثلا - ما شأنه ؟ وما حاله يوم القيامة ؟

يقول الحديث الشريف : (من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين)[٣] .

إذا غرتك قوتك ياابن آدم فلم استحكمت فيك شهوتك ؟

وإذا غرك غناك : فارزق عباد الله يوماً !

وإياك والظلم . يا أخى المسلم . فإن رسول الله ﷺ يقول : (إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)[٤] ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٥] .

وهذه وصية رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل رضى الله عنه حين بعثه إلى اليمن قال : (إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله : فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)[٦] .

---

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٢ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٣٥ ، ٣٠١ ، ٣٧٢ ، ٤١١ .

(٢) أخرجه البخارى فى العلم : ٤٣ ، وفى الحج : ١٣٢ ، وفى المغازى : ٧٧ ، وفى الأدب : ٩٥ ، وفى الحدود : ٩ ، وفى الفتن : ٨ . ومسلم فى الايمان : ١١٨ - ١٢٠ . وابوداود فى السنة : ١٥ . والترمذى فى الفتن : ٢٧ . والنسائى فى التحريم : ٢٩ . وابن ماجة فى الفتن : ٥ . والدارمى فى المناسك : ٧٦ . والامام أحمد فى ١ : ٢٣٠ ، ٢٠٢ ، وفى ٢ : ٨٥ ، ٨٧ ، ١٠٤ ، وفى : ٤ ، ٧٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، وفى ٥ : ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٦٨ ، ٧٣ .

(٣) أخرجه البخارى فى المظالم : ١٣ ، وفى بدء الخلق : ٢ . ومسلم فى المساقاة : ١٤٢ . والدرامى فى البيوع : ٦٤ . والامام أحمد فى : ١ : ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، وفى ٤ : ١٧٣ ، وفى ٦ : ٦٤ ، ٧٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ : ٥ . ومسلم فى البر : ٦٢ . وابن ماجة فى الفتن : ٢٢ .

(٥) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٦) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٦٣ . ومسلم فى الايمان : ٢٩ . وابوداود فى الزكاة : ٥ . والترمذى فى الزكاة : ٦ . والنسائى فى الزكاة : ١ ، ٤٦ . وابن ماجة فى الزكاة : ١ . والدارمى فى الزكاة : والامام مالك فى دعوة المظلوم : ١ . والامام أحمد فى ١ : ٢٣٣ ، وفى ٢ : ٣٤٣ ، وفى ٣ : ١٥٣ .

هــذا بيــان للنـــاس

أخى القارىء الكريم :

وهكذا طفت بك طوافاً مباركاً حول هذه الآية الجامعة التى ورد الأمر فيها بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وجاء النهى فيها عن الفحشاء والمنكر والبغى وكان ختامها قوله تبارك وتعالى : ﴿ **يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ .

فالوعظ من الله : إرشاد وتوجيه وحدود ومعالم لا يتعداها إلا من ظلم نفسه وسفه قدره ونسى ربه ولفظ (لعل) من الله تعالى لا يفيد الترجى إنما يفيد التعليل والغاية فهو بمعنى (لتتذكروا) إذ أن الترجى هو توقع حصول الأمر المحبوب . و توقع حصول الشيء يفيد الجهل به والجهل على الله محال : ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾[1] .

الوفاء بالعهود فى الإسلام
والمحافظة على الإيمان

قال الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون * ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون** ﴾ :

هاتان الآيتان الكريمتان ورد ذكرهما بعد الآية الجامعة لأصول الاسلام ومبادئه ، وذلك دليل على مكانة العهود فى الإسلام ، فقد أكد الله هذا الجانب بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ﴾[3] ، وهنا يقول ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾ .

والعهد : عبارة عن العقد المؤكد باليمين والله جل جلاله يريد أن يعطى العهد مكانة تليق بالوفاء به فيقول : ﴿ **وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً** ﴾ .

فمن استشعر عظمة الله وهيمنة سلطانه فإنه لن يجترىء على نقض عهوده ولذلك جاء ختام الآية : ﴿ **إن الله يعلم ما تفعلون** ﴾ .

إذاً : فما دام الله هو الكفيل العالم بالفعل : سره وعلنه أوله وآخره صغيره وكبيره فكفى به كفيلا وكفى به عليماً .

ثم تأتى الآية الثانية فتشبه ناقض العهد بعد توكيده : بامرأة خرقاء ذات حماقة وسفاهة غزلت غزلاً محكماً متقناً ثم نقضته نقضاً فذهب غزلها أدراج الرياح وضاع جهدها هباء منثوراً .

كذلك نقض العهود بعد توكيدها : يضعف الأمة ويؤدى بمكانة الفرد مهما كانت الدوافع إلى

(١) الآية ٢٩ من سورة الإنسان . (٢) الآية الأولى من سورة المائدة . (٣) الآية ٣٤ من سورة الإسراء .

النقض ولذلك سمى الله هذا الفعل خيانة ودخلاً وخديعة فقال : ﴿ **تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم** ﴾ .

وذلك من أجل أن تكون أمة أكثر عدداً من الأخرى ، فليس المدار على كثرة العدد أو العُدة ، إنما المدار على الثبات والحزم والرجولة والشهامة .

قال سبحانه جل من قائل : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ﴾[1] ، وقال تبارك اسمه : ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾[2] .

وإذا كان القرآن الكريم قد شبه ناقضى العهود بالمرأة الخرقاء السفيهة ، فإن السنة الشريفة أنزلت (الغادر) يوم القيامة مكانة سحيقة من الذل الهوان ، قال صلوات الله وسلامه عليه : (إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال : هذه غدرة فلان وإن من أعظم الغدر بعد الشرك بالله ــ أن يبايع رجلٌ رجلاً على بيعة الله ورسوله ثم ينكث بيعته فلا يخلعن أحد منكم يداً ولا يسرفن أحد منكم فى هذا الأمر فيكون فصل بينى وبينه)[3] .

وكفى بنقض العهد بشاعة : أنه يجعل صاحبه من أهل النفاق وكفى بالنفاق إثماً أنه داء عضال ووبال فتاك بكرامة الأمم والأفراد ، قال ﷺ : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان)[4] .

وقال أيضاً فى رواية للإمام مسلم (وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم) .

وفى حديث آخر (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر)[5] متفق عليه .

واستمع يا أخى إلى هذه الصورة المشرقة المشرفة من الوفاء بالعهد والتى تمثلت على يدى الصديق رضى الله عنه خليفة رسول الله ﷺ .

فعن جابر رضى الله عنه قال : قال لى النبى ﷺ : (لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا فلم يجيء مال البحرين حتى قبض النبى ﷺ فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر رضى الله عنه عليه فنادى:من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الأحزاب . (٢) الآية ٢٤ من سورة الأحزاب .

(٣) أخرجه البخارى فى الجزية : ٢٢ . ومسلم فى الجهاد : ٨ ، ١٠ – ١٧ . وابوداود فى الجهاد : ١٥٠ . والترمذى فى السير : ٢٨ ، وفى الفتن : ٢٦ . وابن ماجة فى الجهاد : ٤٢ . والدارمى فى البيوع : ١١ . والامام أحمد فى ١ : ٤١١ ، ٤١٧ ، ٤٤١ ، وفى ٢ : ١٦ ، ٢٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى الايمان : ٢٤ ، وفى الشهادات : ٢٨ ، وفى الادب : ٦٩ . ومسلم فى الايمان : ١٠٧ ، ١٠٩ ، والترمذى فى الايمان : ١٤ . والنسائى فى الايمان : ٢٠ .

(٥) أخرجه مسلم فى الايمان : ١٠٦ . والبخارى فى الايمان : ٢٤ ، وفى الجزية : ١٧ . وابوداود فى السنة : ١٥ .

دين فليأتنا فأتيته وقلت له : إن النبى ﷺ قال لى كذا وكذا فحثى لى حثية فعددتها فإذا هى خمسمائة فقال لى : خذ مثليها)[١] متفق عليه .

إن الله تعالى أمرنا فى هذا المشهد القرآنى الكريم بالوفاء بالعهد ونهانا عن نقض الايمان بعد توكيدها والأوامر والنواهى ابتلاء وإختبار ولذا ختم الله هذه الآية الكريمة بقوله تبارك وتعالى : ﴿ **إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون** ﴾ .

وتعقيباً على الوفاء بالعهود والمحافظة على الإيمان نقول :

١- النهى عن الحلف بغير الله :

لا يجوز لمسلم أن يحلف بغير الله تعالى ، فقد قال صلوات الله وسلامه عليه : (إن الله تعالى ينهاكم إن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً : فليحلف بالله أو ليصمت)[٢] . وفى رواية فى الصحيح (فمن كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله أو ليسكت) .

كذلك من باب الخطأ الشائع أن يحلف الانسان بالأمانة فقد روى أبو داود رضى الله عنه بإسناد صحيح أن النبى ﷺ قال : (من حلف بالأمانة فليس منا)[٣] .

ومن الآفات الشائعة أيضاً بين الناس : أن يبرأ أحدهم من الإسلام إن فعل كذا وكذا .

فما موقف هذا من الله ومن الإسلام ؟

لقد روى أبو داود أن النبى ﷺ قال : (من حلف فقال إنى برىء من الاسلام : فإن كان كاذباً فهو كما قال ، وإن كان صادقاً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً)[٤] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سمع رجلاً يقول : لا والكعبة.فقال ابن عمر : لا تحلف بغير الله فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)[٥] رواه الترمذى .

٢ - الوعيد الشديد لمن حلف بالله كاذباً :

من الكبائر التى نهى الله ورسوله عنها : الحلف بالله كاذباً فقد أخبر الصادق الأمين ﷺ فقال : (اليمين الفاجرة تذر الديار بلاقع)[٦] .

وروى ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (من حلف على مال امرىء مسلم بغير حقه

(١) أخرجه البخارى فى الكفالة : ٣ ، وفى الخمس : ١٥ . وأحمد فى ٣ : ٣١٠ .
(٢) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ٧ . والترمذى فى النذور : ٨ .
(٣) أخرجه ابوداود فى الايمان : ٥ . والامام أحمد فى ٥ : ٣٥٢ .
(٤) أخرجه النسائى فى الايمان : ٨ . وابن ماجة فى الكفارات : ٣ . والامام أحمد فى ٥ : ٣٥٥ ، ٣٥٦ .
(٥) أخرجه الترمذى فى النذور : ٩ . والنسائى فى الايمان : ٤ . وابن ماجة فى الكفارات : ٢ . والدرامى فى النذور : ٦ . والامام أحمد فى ١ : ٤٧ ، وفى ٢ : ٣٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢ .
(٦) أخرجه الامام أحمد فى ٥ : ٧٩ .

لقى الله وهو عليه غضبان) قال : ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقة من كتاب الله عز وجل : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾(١) . متفق عليه .

ثم تعال معى أخا الاسلام . تمعن النظر فى هذا الحديث النبوى الشريف الذى يبين فيه الرسول المصطفى ﷺ مدى الخطورة المترتبة على الحلف بالله كذبا فى سبيل أن ينال عرضاً دنيوياً فانياً لا قيمة له .

قال صلوات الله وسلامه عليه : (من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال له رجل : وإن كان شيئاً يسيراً يارسول الله ؟ وإن كان قضيباً من أراك)(٢) رواه مسلم .

وقد سمى الإسلام اليمين الكاذبة : باليمين الغموس ، لأنها تغمس صاحبها فى النار ولذلك نظمها فى سلك الكبائر من الذنوب ، قال صلوات الله وسلامه عليه (الكبائر : الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس)(٣) رواه البخارى .

وفى رواية للبخارى أيضاً: أن أعرابياً جاء إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله : ما الكبائر ؟ قال (الإشراك بالله قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس قلت : وما اليمين الغموس . قال : الذى يقتطع مال امرىء مسلم) .

يعنى يمين هو فيها كاذب .

٣ - رحمة الله بعباده :

من باب رحمة الله التى وسعت كل شىء أنه لم يجعل اليمين مانعاً من فعل الخير ، فإذا حلفت يميناً إلا تفعل كذا ثم ظهر أن الخير فى فعله فلا تجعل يمين الله عائقاً ومانعاً من فعل ما حلفت عليه ، بل افعل الذى هو خير وكفر عن يمينك .

وكفارة اليمين : هى كما بينها الله تبارك وتعالى فى قوله: ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد : فصيام ثلاثة

---

(١) أخرجه البخارى فى الخصومات : ٤ ، وفى الشهادات : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٥ ، وفى تفسير سورة ٣ : ٣ . وفى الايمان : ١١ ، ١٧ ، ومسلم فى الايمان : ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ . وابوداود فى الايمان : ١ . والترمذى فى البيوع : ٤٢ . وابن ماجة فى الاحكام : ٨ . والامام أحمد فى ١ : ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤١٦ ، ٤٢٦ ، ٤٤٢ ، ٤٦٠ ، وفى ٢ : ١١٨ ، وفى ٤ : ١٩٢ ، ٣١٧ ، وفى ٥ : ٢٥ ، ٢١١ ، ٢١٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٤ . ومسلم فى الايمان : ٢١٨ . والترمذى فى تفسير سورة ٣ : ٢١ . والنسائى فى القضاة : ٣٠ . والدارمى فى البيوع : ٦٢ . والامام مالك فى الاقضية : ١١ . والامام أحمد فى ١ : ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٤١٦ . وفى ٥ : ٢٦٠ ، وفى ٦ : ٢١٢ .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب : ٦ ، وفى الايمان : ١٦ ، وفى الديات : ٢ ، وفى الاستتابة : ١ . والترمذى فى تفسير سورة ٤ : ٤ ، ٦ . والنسائى فى التحريم : ٣ . والدارمى فى الديات : ٩ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٠١ ، ٢١٤ ، وفى ٣ : ٤٩٥ .

أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم ﴾[١] .

وجاء فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال (إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك)[٢] . متفق عليه .

وقال أيضاً صلوات الله وسلامه عليه : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير)[٣] . رواه مسلم .

هذه أمور ثلاثة عقّبنا بها على آية (الأيمان والعهود) وذلك نظراً لعموم البلوى وإنتشار وقوعها .

وكان أول هذه الأمور : النهى عن الحلف بغير الله .

وكان ثانيها : الوعيد الشديد لمن حلف بالله كاذباً .

وكان ثالثها : التكفير عن اليمين إذا كان الخير فى غيرها .

مشيئة وحكمة وتوجيه

﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون ﴾ :

اعلم يأخى أن مشيئة الله تعالى مبنية على علم وحكمة ، وأن من مشيئته تعالى أنه أعطى عباده الاختيار والكسب والعقل والتمييز ، ووهبهم القوى التى تمكنهم من سلوك الطريقين : طريق الخير وطريق الشر ، فليس لإنسان مجترىء على المخالفة لأوامر الله أن يُلقى باللائمة على مشيئة الله .

قال سبحانه فى حق الإنسان : ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾[٤] ، وفسر السبيل بقوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾[٥] بعدها قال : ﴿ ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين ﴾[٦] ، وفسر ﴿ النجدين ﴾ بقوله : ﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها ﴾[٧] .

وأرشد إلى الخير وحذر من الشر فقال : ﴿ قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾[٨] .

وزاد هذه القضية وضوحاً وإظهاراً وقال : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[٩] .

---

(١) الآية ٨٩ من سورة المائدة .

(٢) أخرجه البخارى فى الايمان : ١ ، ٨٣ . ومسلم فى الايمان : ١٩ . وابوداود فى الايمان : ١٢ ، ١٤ . والترمذى فى النذور : ٥ . والنسائى فى الايمان : ١٥ ، ١٦ . وابن ماجة فى الكفارات : ٧ . والدارمى فى النذور : ٩ . والامام أحمد فى : ١٣٧ ، وفى ٥ : ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٤ : ٤٢٨ .

(٤) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الانسان .

(٥) الآية ١٠ من سورة البلد .

(٦) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة البلد .

(٧) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الشمس .

(٨) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .

(٩) الآية ١٧ من سورة فصلت .

ثم نادى بعد ذلك فى عزة وكبرياء تليق بذاته العلية فقال : ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[١] .

ثم بيّن مدى رحمته بعباده فقال : ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ﴾[٢] .

وقد سئل الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه فقيل له : ما بال الله يريد ثم يعاقب ؟ فقال الإمام كلمة تكتب بمداد من الذهب ، قال : (الله أراد بنا وأراد منا فأخفى ما أراد بنا وأظهر ما أراد منا فاحتججنا بما أراد بنا وتركنا ما أراد منا) .

تلك كلمة حق فاصلة نوجهها إلى (المفلسين) الذين أقدموا على المخالفات الشرعية تاركين أوامر الله وطرحوها وراءهم ظهرياً ، ويشربون ويلعبون وعلى الأعراض يعتدون ، فى الحياة يعبثون ويعبثون ، ثم بعد ذلك يلقون باللائمة على صفحة الغيب ، فإذا كلمت أحدهم فى ذلك فلا تسمع منه إلا جدالا فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

إن مشيئة الله صالحة لأن تجعل الناس كلهم أمة واحدة والاضلال والهداية ، إنما يكونان على حسب استعداد العبد وسلوكه ، قال سبحانه : ﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾[٣] .

ولذا يقال لهذا (النادم) يوم القيامة : ﴿ بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾[٤] .

فيا أخى : قل لمن عصى ربه وقال إنه أراد بى هكذا قل له : أطلعت على الغيب ، أم اتخذت عند الرحمن عهداً .

قل له : ألم يرسل ربك إليك رسولاً يبين لك الحلال والحرام ؟

قل له : الم ينزل إليك كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وفيه تبيان لكل شىء ؟

قل له : ألم يهبك الله عقلاً تميز به الخبيث من الطيب ؟

ثم قل له بعد ذلك ألم يرفع القلم عن ثلاث : عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبى حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ .

قل له : ألم يتجاوز ربك بفضله وكرمه عن الخطأ والنسيان وما استكره الإنسان عليه ؟

قل له : ألم يفتح ربك الكريم باب التوبة ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ويبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٧ من سورة الزمر .

(٣) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .

(٤) الآية ٥٩ من سورة الزمر .

قل له : ألم تسمع إلى قول إبليس اللعين لربه عز وجل وعزتك وجلالك (لأغوينهم) مادامت أرواحهم فى أبدانهم . فقال رب العزة وعزتى وجلالى ، لأغفرن لهم ماداموا يستغفروننى ؟

إذاً : فقوله تعالى : ﴿ **ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء** ﴾ ، لا يفيد إجبار العبد على سلوك طريق الضلال ، وذلك كما بينا فى الآيات السابقة . إنما المشيئة هنا مبنية على علم الله ، والعلم صفة انكشاف لا صفة إلزام وجبر .

إن الله تعالى فرض فرائض فأدوها ، ونهى عن أشياء فلا تقربوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم فلا تسألوا عنها .

ترغيب وترهيب

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

المفـــردات : ﴿ **زلة القدم بعد ثبوتها** ﴾ : مثل يقال لمن وقع فى محنة بعد نعمة وبلاء بعد عافية .

﴿ **والحياة الطيبة** ﴾ : هى القناعة وعدم الحرص على لذات الدنيا لما فى ذلك من الكد والعناء .

وتعود الآيات فتؤكد الوفاء بالعهد ، وتنهى عن اتخاذ الأيمان خديعة ومراوغة ، إذ أنه سيترتب على ذلك زلة الأقدام بعد ثبوتها هذا فى الدنيا : أما فى الآخرة فعذاب أليم وخزى عظيم .

ثم ينهى عن أن يشترى الانسان بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلاً ، فيخالف بذلك ربه ، لأن ما فى هذه الدنيا كلها لا يساوى عند الله جناح بعوضة إذا قيس بما عند الله ﴿ **إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون * ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾ .

ألا أن كل شيء هالك إلا ما عند الله ، وما عنده لا يناله إلا الصابرون على طاعته، المقيمون لشعائر دينه ﴿ **ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ :

ما أعظم العدالة الإلهية ، وما أجمل قدرها ، وما أفضل الكرم الربانى ، وما أرفع شأنه :

يا من يجيب العبد قبل سؤاله ويجود للعاصين بالغفران
وإذا أتاه الطالبون لعفوه ستر القبيح وجاد بالإحسان
أصبحت ضيف الله فى دار الرضا وعلى الكريم كرامة الضيفان
تعفوا الملوك عن النزيل بساحهم كيف النزول بساحة الرحمن
وأنا المسىء وقد دعوتك سيدى تعفو وتصفح للعُبَيْد الجانى
يا من إذا وقف المسىء ببابه ستر القبيح وجاد بالإحسان

وعدٌ من الله ، والله لا يخلف وعده ، لمن عمل صالحاً لا فرق فى ذلك بين الذكر والأنثى .

والعمل الصالح : هو كل ما جاء موافقاً لأوامر الله ورسوله ، ولقد وعد الله هؤلاء بوعدين :

أحدهما : فى الدنيا ، **والآخر** : يوم القيامة .

أما فى الدنيا : فحياة طيبة فيها سكينة وقناعة ، ورضا من الله وعن الله رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وأما فى الآخرة : فجزاء بأحسن ما كانوا يعملون .

والإيمان شرط أساسى ، فلا يقبل من الأعمال إلا ما كان مبنياً على الإيمان ، قال سبحانه : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن** ﴾ :

وتظهر ثمرة الإيمان فى الرضا بالقضاء ، والشكر على الرخاء ، والصبر عند البلاء ، ولا يجوز لعبد مؤمن أن يجزع لما قضى الله . وكان داود عليه السلام يقول : (اللهم إنى أسألك أربعاً وأعوذ بك من أربع : اسألك لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وبدناً على البلاء صابراً وزوجة تعيننى على دينى ودنياى : وأعوذ بك من ولد يكون على سيداً ومن مال يكون وبالاً علىّ ويتمتع به غيرى ومن جار سوء إن رأى منى خيراً أنكره وإن رأى سوءاً نشره ومن زوجة تشيبنى قبل المشيب) .

فبادر يا أخى بالعمل الصالح لتنال الوعدين الكريمين فى الدنيا والآخرة ، وسارع بالتوبة والرجوع إلى الله ، وما أجمل الصلح مع الله ، ألا وإن الصلح مع الله طريق النجاة .

إرشادات وبيان

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

المفـــردات : ﴿ **سلطان** ﴾ : تسلط وقوة ، ﴿ **بدّلنا آية** ﴾ : رفعنا آية وجعلنا موضعها غيرها ، ﴿ **روح القدسُ** ﴾ : أى جبريل ، ﴿ **يلحدون** ﴾ : يميلون إليه ويشيرون ، ﴿ **أعجمى** ﴾ : العجمة فى لسان العرب الإخفاء وضد البيان ورجل أعجم وامرأة عجماء أى لا يفصح .

قوله تعالى : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾ :

أى إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ الآية ، أى إذا أردتم الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، والأمر فى قوله تعالى ﴿ **فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾ : للندب وحكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة .

والحكمة من الابتداء بالاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارىء قراءته ، ويخلط عليه ، ويمنعه من التدبر والتفكر .

قوله تعالى : ﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** ﴾ :

قال بعض المفسرين معناه لا حجة له عليهم .

وقال الثورى : ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم فى ذنب لا يتوبون منه . وقال آخرون : كقوله ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[1] .

﴿ **إنما سلطانه على الذين يتولونه** ﴾ :

قال مجاهد : يطيعونه .

وقال آخرون : اتخذوه وليا من دون الله .

﴿ **والذين هم به مشركون** ﴾ :

أى أشركوه فى عبادة الله ، ويحتمل أن تكون الباء سببية ، أى صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى .

(١) الآية ٤٠ من سورة الحجر .

وقال آخرون : معناه أنه شركهم فى الأموال والأولاد .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا بدلنا أية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين** ﴾ :

قال قتادة هو كقوله تعالى :﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها**﴾(٢)الآية .

وقال العلامة ابن كثير : فى هذه الآية يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم ، وأنه لايتصور منهم الايمان ، وقد كتب عليهم الشقاوة ، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ (**إنما أنت مفتر**) أى كذاب ، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وأجابهم الله تعالى : ﴿ **قل نزله روح القدس** ﴾ : أى جبريل ﴿ **من ربك بالحق** ﴾ : أى بالصدق والعدل .

﴿ **ليثبت الذين آمنوا** ﴾ : فيصدقون بما أنزل أولاً وثانياً ، وتخبت له قلوبهم ﴿ **وهدى وبشرى للمسلمين** ﴾ : أى وجعله هادياً ، وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾ :

وهذا مما افتراه الكافرون على صاحب الرسالة العصماء ﷺ ، وما كان أكثر مايفترون ، فقد كانوا يقولون إن الذى يتلوه علينا محمد من القرآن إنما كان يعلمه بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش ، وكان بياعاً يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشىء ، وذاك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشىء اليسير بقدر ما يرد الجواب .

فلهذا قال تعالى رادا عليهم افتراءهم ذلك : ﴿ **لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾ : أى القرآن ، أى فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن فى فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التى هى أكمل من معانى كل كتاب نزل على بنى إسرائيل ، كيف يتعلم من رجل أعجمى ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل .

قال محمد بن اسحق بن يسار فى السيرة : كان رسول الله ﷺ فيما بلغنى كثيراً ما يجلس عند المروة إلى سبيعة ، غلام نصرانى يقال له جبر ، عبد لبعض بنى الحضرمى ، فأنزل الله : ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين لايؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم * إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون** ﴾ :

(١) الآية ١٠٦ من سورة البقرة .

هذا حكم عادل من الحكم العدل ، وجزاء حق على الذين لايؤمنون بآيات الله ويكذبونها ويجحدونها ، كيف يهديهم الله وقد كفروا بآياته .

وقال الله فيهم : ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴾(١) .

إنهم أظلم الخلق الذين قال الله فيهم : ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا * ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ماقدمت يداه ﴾(٢) .

انتم الذين أعرضوا عن ذكر الله ،فحق فيهم قوله جل شأنه ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾(٣) .

إن الله تعالى لايهدى هؤلاء فى الدنيا ، ولهم عذاب أليم موجع يوم يقوم الناس لرب العالمين : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا * السماء منفطر به كان وعده مفعولا * إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ **إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون** ﴾

هذا دفاع من الله جل وعز عن الصادق الأمين محمد ، فما كذب على الله قط ، وما افترى عليه مالم يقله .

لقد جاء فى الحديث القدسى الجليل قوله تعالى : [صدق عبدى فيما بلغ عنى] .

وكيف يكذب ورب العالمين يقول : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ماتؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ماتذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾(٥) .

وكيف يكذب وقد زكى الله تعالى عقله : فاقسم : ﴿ والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى ﴾(٦) .

وزكى لسانه ، فقال ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾(٧) .

وزكى شرعه ، فقال : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾(٨) .

---

(١) الآية ٥٧ من سورة الكهف .

(٢) الآيتان ٥٦ ، ٥٧ من سورة الكهف .

(٣) الآيات ١٢٤ – ١٢٧ من سورة طه .

(٤) الآيات ١٧ – ١٩ من سورة المزمل .

(٥) الآيات ٤١ – ٤٧ من سورة الحاقة .

(٦) الآيات ١ – ٢ من سورة النجم .

(٧) الآية ٣ من سورة النجم .

(٨) الآية ٤ من سورة النجم .

وزكى جليسه فقال: ﴿علمه شديد القوى﴾[(١)] وزكى فؤاده ، فقال : ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾[(٢)] .

وزكى بصره ، فقال : ﴿ مازاغ البصر وما طغى ﴾[(٣)] .

وزكى أمته ، فقال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾[(٤)] .

وزكى أهل بيته ، فقال : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾[(٥)] .

وزكى رسالته ، فقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[(٦)] .

وزكاه كله ، فقال تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[(٧)] .

﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين ﴾[(٨)] .

فكيف يكذب محمد على الله وهو أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً ، وإيماناً وإيقاناً ، معروفا بالصدق فى قومه ، لا يشك فى ذلك أحد منهم ، بحيث لا يُدعى بينهم إلا بالأمين محمد ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التى سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله .

إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾

(١) الآية ٥ من سورة النجم .
(٢) الآية ١١ من سورة النجم .
(٣) الآية ١٧ من سورة النجم .
(٤) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .
(٥) الآية ٣٣ من سورة الأحزاب .
(٦) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .
(٧) الآية ٤ من سورة القلم .
(٨) الآية ١١١ من سورة يوسف .

المفـــــردات : ﴿ **شرح بالكفر صدرا** ﴾ : فتحه ووسعه والمراد اطمأن صدره له ، ﴿ **غضب** ﴾أشد من اللعن الذى هو الطرد من رحمة الله ، ﴿ **استحبوا** ﴾ : اختاروا وأحبوا ، ﴿ **فتنوا** ﴾ : اختبروا بالعذاب .

سبـــب النـــزول

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السالفة أن قريشا كفروا برسول الله ﷺ ، وتقوّلوا عليه الأقاويل ، فوصفوه بأنه مفتر ، وأن الكتاب الذى جاء به هو من كلام البشر لا من عند الله ، ثم هددهم على ذلك أعظم تهديد ، قفّى على ذلك ببيان حال من يكفر بلسانه وقلبه ملىء بالايمان .

أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل (أن المشركين أخذوا عمّار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبى ﷺ وذكر آلهتهم بخير ، فلما أتى رسول الله ﷺ قال له : ماوراءك ؟ قال : شر ماتركت ، نلت منك وذكرت آلهتهم بخيَر ، قال : كيف تجد قلبك ؟ قال ! مطمئن بالإيمان ، قال : إن عادوا فعد فنزلت ﴿ **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾ :)

وروى (أن قريشاً أكرهوا عمارا وأبويه ياسراً وسمية على الارتداد فأبوا ، فربطوا سمية بين بعيرين ، ووجئت بحربة فى موضع عفتها ، وقالوا : إنما أسلمت من أجل الرجال فقتلوها ، وقتلوا ياسراً ، وهما أول قتيلين فى الاسلام ، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ماأكرهوه عليه ، فقيل : يارسول الله إن عماراً كفر ، فقال رسول الله ﷺ : كلا إن عماراً ملىء بايمان من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمارا رسول الله ﷺ وهو يبكى فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه وقال : مالك ؟ إن عادوا فعد لهم بما قلت) .

قوله تعالى : ﴿ **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾ : هذا استثناء من قوله ﴿ **من كفر بالله من بعد إيمانه** ﴾ : لأن هذا الفريق من الناس كفر بلسانه ، والإيمان مطمئن فى قلبه ، حتى يوافق لسانه مايقول به المشركون ، ولكن القلب عامر بالإيمان ، والتصديق لا يتغير ولا يتبدل الإيمان صانع العجائب والمعجزات ، إذا باشرت بشاشته شغاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكناً ، فلو أنه صعد إلى السماء لكان قمراً منيرا ، ولو امتزج بماء البحر لجعله عذبا فراتاً سلسبيلا ، ولو هبط إلى الأرض لكساها سندساً وحريراً .

أما الذين تمكن الكفر من قلوبهم وشرحوا به صدراً فقد حكم الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ **فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

ثم بين حيثيات هذا الحكم بقوله : ﴿ **ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله**

لا يهدى القوم الكافرين ﴾ ، وبقوله : ﴿ **أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون ﴾** :

لقد أغلقوا كل نافذة إلى المعرفة ، وآثروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية ،فحق فيهم قوله جل شأنه : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾[١] .

وحق فيه قوله جل شأنه : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ﴾[٣] .

نعم إن الله لا يهدى القوم الكافرين ، لأنه حكيم لا يعرف العبث فكيف تجتمع الهداية والكفر فى قلب واحد ، **إن هؤلاء القوم قد طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وعلى سمعهم فلا يسمعون بها ، وعلى أبصارهم فلا يبصرون بها** ، ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[٤] .

قال تعالى فى حق هؤلاء : ﴿ فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾[٥] ، ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾[٦] .

﴿ **لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾** :

وهل هناك أشد خسراناً ممن خسر نفسه ، حقاً ذلك هو الخسران المبين ، قال تعالى : ﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون * ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾[٧] .

قوله تعالى : ﴿ **ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ماعملت وهم لا يظلمون ﴾** :

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف حال من كفر بالله من بعد إيمانه ، وحكم بأنه استحق غضب الله وعذابه الأليم يوم القيامة ، ثم ذكر حال من أكره على إجراء كلمة الكفر على لسانه وقلبه ملىء بالإيمان –

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة يونس .
(٢) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة هود .
(٣) الآية ١٨ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .
(٥) الآية ٤ من سورة فصلت .
(٦) الآية ٥ من سورة فصلت .
(٧) الآيات ١٠٣ – ١٠٥ من سورة المؤمنون .

أردف بذكر طائفة من المسلمين كانوا مستضعفين بمكة مهانين فى قومهم ، فوافقوا المشركين على الفتنة فى الدين والرجوع إلى دين آبائهم وأجدادهم ، ثم فرّوا وتركوا بلادهم وأهليهم ابتغاء رضوان الله وطلب غفرانه ، وانتظموا فى سلك المؤمنين ، وجاهدوا معهم الكافرين ، فحكم ربهم بقبول توبتهم ، ودخولهم فى زمرة الصالحين ، وتمتعهم بجنات النعيم يوم العرض والحساب .

أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة أن عياشا رضى الله عنه – وكان أخا أبى جهل من الرضاعة – وأبا جندل بن سهل وسَلَمة بن هشام وعبد الله بن سلمه الثقفى ، فتنهم المشركون وعذبوهم فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ، ثم إنهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا فنزلت فيه الآية : ﴿ **ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾ .

أى أن ربك أيها الرسول للذين هاجروا من ديارهم وتركوا مساكنهم من أهل الشرك ، وانتقلوا عنهم إلى ديار الاسلام ، من بعد أن فتنهم المشركون الذين كانوا بين ظهرانيهم قبل هجرتهم ، ثم جاهدوا المشركين بعد ذلك بأيديهم بالسيف ، وبألسنتهم بالبراءة منهم ومما يعبدون من دون الله ، وصبروا على جهادهم ـ إن ربك من بعد أفعالهم هذه لذو ستر على ما كان منهم من إعطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم ، وهم لغيرها مضمرون ، وللايمان معتقدون ، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إليه ، وجميل صنعهم من بعد .

وقوله تعالى : ﴿ **يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها** ﴾ :

أى إن ربك لغفور رحيم بهؤلاء يوم تأتى كل نفس تخاصم عن نفسها ، وتحاجّ عنها ، وتسعى فى خلاصها ، بما أسلفت فى الدنيا من عمل ولا يهمها شأن غيرها من ولد ووالد وقريب . ﴿ **وتُوفّى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون** ﴾ :

أى وتعطى كل نفس جزاء ما عملت فى الدنيا من طاعة أو معصية فيجزى المحسن بما قدم من إحسان ، والمسىء بما أسلف من إساءة ، ولا يعاقب محسن ولا يثاب مسىء فكل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كما قال سبحانه : ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[1] .

وجاء فى بعض الآثار : (أن جهنم لتزفر زفرة ، لا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول : رب نفسى نفسى حتى إن إبراهيم الخليل ليفعل ذلك) .

(١) الآية ٣٧ من سورة عبس .

جزاء كفر النعمة والأمر بشكرها

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

المفردات : ﴿ **فأذاقها** ﴾ : شبه إدراكهم الضرر بتذوقهم طعم المر ، ﴿ **يقولون** ﴾ : له وجه يصف الجمال ، وعين تصف السحر ، يريدون أنه جميل وأن عينه تفتن من رآها ، لأنه لما كان وجهه منشأً للجمال وعينه منبعاً للفتنة والسحر كان كل منهما كأنه إنسان عالم بكنههما ، محيط بتحقيقتهما يصفهما الناس أجمل وصف ويعرفهما أتم تعريف وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب ﴾[1] .

إذ جعل الكذب كأنه حقيقة مجهولة ، وكلامهم الكذب يشرح تلك الحقيقة ويوضحها ، كأن ألسنتهم لكونها موصوفة بالكذب هى حقيقته ومنبعه وعليه قول ابى العلاء المعّرى :

سرى برق المعّرة بعد وهن فبات برامة يصف الكلالا

أى أن سُرى ذلك البرق يصف الكلال والإعياء .

لتفتروا : أى لتكون العاقبة ذلك .

والجهالة هنا : الطيش وعدم التدبر فى العواقب .

(١) الآية ١١٦ من سورة النحل .

المناسبــــة

بعد أن هدد سبحانه الكافرين بالعذاب الشديد فى الآخرة – أردف ذلك الوعيد بآفات الدنيا من جوع وفقر وخوف شديد بعد أمن واطمئنان وعيش رغد .

قوله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون** ﴾ :

هنا مثل أريد به أهل مكة (من القواعد المقررة فى الأصل أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) فإنها تشمل كل مجتمع ينتشر فيه الظلم والكفر والجحود ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين * وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون * وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون * أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾[١] .

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾[٢] .

إذا كنت فى نعمة فارعها فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

لقد كانت تلك القرية آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف ، كما قال : ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرماآمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[٣] .

وهكذا قال هنا : ﴿ **يأتيها رزقها رغداً** ﴾ : أى هنيئا سهلا ، ﴿ **من كل مكان فكفرت بأنعم الله** ﴾ : أى جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم كما قال تعالى : ﴿ الم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾[٤] .

ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما ، فقال : ﴿ **فأذاقها الله لباس الجوع والخوف** ﴾ : أى ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان .

(١) الآيات ٥٨ – ٦١ من سورة القصص .
(٢) الآية ٥٣ من سورة الأنفال .
(٣) الآية ٥٧ من سورة القصص .
(٤) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة إبراهيم .

وذلك أنهم أستعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه ، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم ، فأكلوا العلهز – وهو وبر البعير – يخلط بدمه إذا نحروه .

وقوله : ﴿ **والخوف** ﴾ : وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه ، وجعل كل ما لهم فى دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذى بعثه الله فيهم منهم ، وامتن به عليهم فى قوله :﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا * رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾[2] .

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم ، فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنا ، ورزقهم بعد العيلة . وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم ، وهذا الذى قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفى عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ **فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون * إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم * ولاتقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع قليل ولهم عذاب أليم** ﴾ .

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأمرين فى هذه الآية أن يأكلوا من رزقه الحلال الطيب ، وأن يشكروا نعمته .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾[3] .

ويرحم الله زماناً كانت المرأة المسلمة تقول لزوجها ناصحة له عندما يخرج من بيته سعياً وراء لقمة العيش : يا فلان اتق الله فينا ، ولا تأكل حراماً ، فإننا نستطيع أن نصبر على الجوع فى الدنيا ، ولا نستطيع أن نصبر على عذاب الله يوم القيامة .

فإذا عاد إلى بيته سألته سؤالين :

كم نزل اليوم من القرآن ؟ وكم حفظت من حديث رسول الله ﷺ ؟

---

(١) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الطلاق .

(٣) الآية ١٧٢ من سورة البقرة .

نعم أن الحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفع ، وإن الظلم لا يدوم ، وإذا دام دمّر ، وقد صدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾[١] .

فيا أيها المخاطبون بهذا الخطاب اتبعوا أوامر الله إن كنتم إياه تعبدون ، فلا معبود سواه ، ولا رب غيره ، فالمصير إليه ، والمآب إليه ، والمرجع إليه .

ثم يذكر الله تعالى بعد ذلك أنواعا من المحرمات فيقول : ﴿ **إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم** ﴾ :

الميتة : مالم يذك زكاة شرعية والمراد بالدم المسفوح كما جاء بيان ذلك فى قوله تعالى : ﴿ قل لاأجد فيما أوحِي إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به ﴾[٢] .

والمراد بما أهل لغير الله به أى ذبح على غير اسم الله ، ومع هذا فمن اضطر إليه ، أى احتاج من غير بغى ولا عدوان ﴿ **فإن الله غفور رحيم** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب * إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون** ﴾ :

عن أبى نضرة قال : قرأت هذه الآية فى سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومى هذا .

وقد صدق فكل من أفتى بخلاف ما فى كتاب الله وسنة رسوله لجهله بما فيهما فقد ضل وأضل من يفتيهم .

ولله در القائل :

كبهيمــة عميــاء قــاد زمامهــا أعمــى علــى عــوج الطريــق الحائــر

أخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال : (عسى رجل يقول إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا فيقول الله عز وجل كذبت أو يقول إن الله حرم كذا أو أحل كذا فيقول الله له كذبت) .

وهذه الآية التى بين ايدينا كقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون * وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾[٣] .

إن مدار الحل والحرمة على ما شرعه الله تعالى وبلغه رسوله ، ومن ثم فقد ألقى القرآن الكريم باللائمة على الذين حرموا وأحلوا من غير سلطان أتاهم فشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله فحرموا البحيرة

(١) الآيتان ١٦٨ ، ١٦٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام

(٣) الآيتان ٥٩ ، ٦٠ من سورة يونس .

والسائبة والوصيلة والحام : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون * وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون * وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لايطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾[1] .

وقد أوعد الله تعالى الذين حرموا وأحلوا من غير إذن من الله وتشريع من لدنه بسوء العاقبة فقال : ﴿ **لتفتروا على الله الكذب** ﴾ : فاللام هنا للعاقبة والصيرورة :

﴿ **إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون** ﴾ : مهما تزينت لهم الدنيا ، وضحت لهم الأيام ، فالمتاع فيها قليل .

قال جل شأنه : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾[2] .

وهنا يقول جل شأنه : ﴿ **إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون * متاع قليل ولهم عذاب اليم** ﴾ :

أى مؤلم موجع ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾[3] ، ﴿ إن شجرت الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلى فى البطون * كغلى الحميم ﴾[4] .

وقد حرص السلف الصالح كل الحرص على التحرى فى الفتوى ، وقد كانوا يعلمون أنهم يوقعون عن الله تعالى ، وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يقول لمن يستفتيه : (لا تجعلوا ظهورنا جسورا إلى جهنم) .

قوله تعالى : ﴿ **وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾ :

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وإنما رخص فيه عند الضرورة ـــ وفى ذلك توسعة لهذه الأمة التى يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى ـــ ذكر سبحانه وتعالى ماكان حرمه على اليهود فى شريعتهم قبل أن ينسخها، وماكانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج ، فقال :

(١) الآيات ١٣٦ - ١٣٩ من سورة الأنعام .
(٢) الآيتان ٧٧ ، ٧٨ من سورة النساء .
(٣) الآية ٢٩ من سورة الكهف .
(٤) الآيات ٤٣ - ٤٦ من سورة الدخان .

﴿ **وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل** ﴾ : أى فى سورة الأنعام فى قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾[1] .

ولهذا قال ههنا ﴿ **وما ظلمناهم** ﴾ : أى فيما ضيقنا عليهم ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ : أى فاستحقوا ذلك كقوله : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ﴾[2] .

ثم أخبر تعالى تكرما وإمتنانا فى حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه ، فقال : ﴿ **ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة** ﴾ :

قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل .

﴿ **ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا** ﴾ : أى أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصى ، واقبلوا على فعل الطاعات ﴿ **إن ربك من بعدها** ﴾ : أى تلك الفعلة والزلة ﴿ **لغفور رحيم** ﴾ .

الخليـــل والحبيـــب

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

المفـــردات : ﴿ **الأمة** ﴾ : الجماعة الكثيرة ، وسمى إبراهيم أمة لأنه قد جمع من الفضائل والكمالات مالو تفرق لكفى أمة ، ألا ترى أبا نواس إذ يقول لهارون الرشيد مادحاً وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد ، ﴿ **والقانت** ﴾ : المطيع لله القائم بأمره ، ﴿ **والحنيف** ﴾ : المائل عن

(١) الآية ١٤٦ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ١٦٠ من سورة النساء .

الدين الباطل إلى الدين الحق ، ﴿ **واجتباه** ﴾ : اختاره واصطفاه ، ﴿ **والحسنة** ﴾ : هى محبة أهل الأديان جميعا له إجابة لدعوته لربه (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين)[1] ، ﴿ **وجعل السبت لليهود** ﴾ : فرض تعظيمه والتخلى فيه للعبادة وترك الصيد ، ﴿ **والحكمة** ﴾ : المقالة المحكمة المصحوبة بالدليل الموضح للحق المزيل للشبهة ، ﴿ **والموعظة الحسنة** ﴾ : الدلائل الظنية المقنعة للعامة ، ﴿ **والجدل** ﴾ : الحوار والمناظرة لاقناع المعاند ، ﴿ **والعقاب** ﴾ : فى أصل اللغة : المجازاة على أذى سابق ثم استعمل فى مطلق العقاب ، ﴿ **والضيق** ﴾ : (بفتح الضاد وكسرها) الغم وانقباض الصدر .

المناسبــــة

بعد أن زيف سبحانه مذاهب المشركين فى إثبات الشركاء والأنداد لله ، وفى طعنهم فى نبوة الأنبياء والرسل بنحو قوله : لو أرسل الله رسلا لأرسل ملائكة ، وفى تحليلهم أشياء حرمها الله وتحريم أشياء أحلها الله ، وبالغ فى هذه المعتقدات ختم السورة بذكر إبراهيم رئيس الموحدين ، الذى كان المشركون يفتخرون به ويقرون بوجوب الاقتداء به ، ليصير ذكر طريقته حاملا لهم على الاقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك .

ثم يأمر نبيه محمد ﷺ باتباعه ، ثم يجعل الأسس التى يبنى عليها دعوته هى الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالحسنى ، ثم يأمره باللين فى العقاب . إن أراده ، أو بترك العقاب وهو أفضل للصابرين ، ثم يأمره بجعل الصبر رائده فى جميع أعماله ، ونهيه عن الحزن على كفر قومه ، وأنهم لم يجيبوا دعوته ، وأنهم يمكرون به ، فالله ينصره عليهم ويكفيه أذاهم ، فقد جرت سنته بأن العاقبة للمتقين ، والخذلان للعاصين الخائنين .

﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ :

مدح الله عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ، ووالد الأنبياء بجملة صفات من صفات الكمال :

١ – أنه وحده كان أمة ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنه كان عنده عليه الصلاة والسلام من الخير ما كان عند أمة ، فهو رئيس الموحدين ، كسر الأصنام ، وجادل الكفار ، ونظر فى النجوم ، ودرس الطبيعة الكونية ، ليطمئن قلبه بالاسلام .

٢ – إنه كان قانتا ، أى مطيعا لله قائماً بأمره .

٣ – إنه كان حنيفاً أى مائلاً عن الباطل متبعاً للحق لا يفارقه ولا يحيد عنه .

٤ – إنه ما كان من المشركين فى أمر من أمور دينهم ، بل كان من الموحدين فى الصغر والكبر ، فهو الذى

---

(١) الآية ٨٤ من سورة الشعراء .

قال للملك فى عصره ﴿ربى الذى يحى ويميت﴾[١] وهو الذى أبطل عبادة الأصنام والكواكب ، بقوله : ﴿ لا أحب الآفلين﴾[٢] وكسر الأصنام حتى ألقوه لأجلها فى النار ، فكانت عليه برداً وسلاماً .

وعلى الجملة فقد كان غارقاً فى بحار التوحيد ، مستغرقاً فى حب الإله المعبود ، وفى ذلك رد على كفار قريش إذ قالوا نحن على ملة إبراهيم ، وعلى اليهود الذين أشركوا وقالوا عزير ابن الله ، مع زعمهم أن إبراهيم كان على مثل ما هم عليه .

ونحو الآية قوله ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾[٣] .

٥ – إنه كان شاكراً لأنعم الله عليه كما قال : ﴿ وإبراهيم الذى وفّى ﴾[٤] أى قام بجميع ما أمره الله تعالى به ، وفى هذا تعريض بكفار قريش الذين جحدوا بأنعم الله فأصابهم الجوع والخوف كما تقدم ذكره فى المثل السابق .

٦ – إنه اجتباه ربه واختاره للنبوة ، كما قال ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾[٥] .

٧ – إنه هداه إلى صراط مستقيم ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، مع إرشاد الخلق إلى ذلك والدعوة إليه .

٨ – إن الله حببه إلى جميع الخلق ، فجميع أهل الأديان مسلميهم ونصاراهم ويهودهم يعترفون به ، وكفار قريش لا فخر لهم إلا به ، وقد أجاب الله دعاءه فى قوله ﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾[٦] .

٩ – إنه فى الآخرة فى زمرة الصالحين ، وهو معهم فى الدرجات العلى من الجنة ، إجابة لدعوته قال : ﴿ رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين ﴾[٧] .

وبعد أن وصف إبراهيم بهذه الصفات الشريفة التى بلغت الغاية فى علوّ المرتبة ، أخبر أنه أمر نبيه محمداً ﷺ باتباعه فقال : ﴿ **ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾ :

أى ثم أوحينا إليك أيها الرسول وقلنا لك : اتبع ملة إبراهيم الحنيفية المسلمة البريئة من عبادة الأوثان والأنداد . التى يعبدها قومك ، كما تبرأ إبراهيم من مثلها من قبل ، فأنت متبع له وسائر على طريقه ، وقومك ليسوا كذلك ، لأنهم يحللون ويحرمون من عند أنفسهم .

ونحو الآية قوله فى سورة الأنعام : ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾[٨] .

---

(١) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٧٦ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٦٧ من سورة آل عمران
(٤) الآية ٣٧ من سورة النجم .
(٥) الآية ٥١ من سورة الأنبياء .
(٦) الآية ٨٤ من سورة الشعراء .
(٧) الآية ٨٣ من سورة الشعراء .
(٨) الآية ١٦١ من سورة الأنعام .

والخلاصـــة : أنه عليه الصلاة والسلام يأمر بإتباع ملة إبراهيم ، ينفى الشرك وإثبات التوحيد ، وإن كان قد ثبت ذلك بالدليل العقلى ليظاهر الدليل النقلى الدليل العقلى .

وقوله : ﴿ **وما كان من المشركين** ﴾ : تكرير لزيادة التوكيد ، وتقرير لنزاهته عليه الصلاة والسلام عما هم عليه من عقيدة وعمل .

ثم نعى على اليهود مااختلفوا فيه وهو يوم السبت فقال : ﴿ **إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ :

أى إنما جعل وبال يوم السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه ، فأحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى ، وكان من الحتم عليهم أن يتفقوا فيه على كلمة واحدة ، بعد أن أمروا بالكف عن الصيد فيه ، كما أن وبال التحريم والتحليل من المشركين من عند أنفسهم واقع عليهم لا محالة .

وإن ربك ليفصل بين الفريقين فى الخصومة والاختلاف ، ويجازى كل فريق بما يستحق من ثواب وعقاب .

وإيراد هذه العبارة بين سابق الكلام ولاحقه إنذار للمشركين ، وتهديد لهم بما فى مخالفة الأنبياء من عظيم الوبال والنكال ، كما ذكر مثل القرية فيما سلف إلا أن فيه حثا على إجابة الدعوة التى تضمنها سابق الكلام ، وأمروا بها فى لاحقه .

ثم فصل سبحانه ماأمر باتباع إبراهيم فيه فقال : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾ :

أى ادع أيها الرسول من أرسلك إليهم ربك بالدعاء إلى شريعته التى شرعها لخلقه بوحى الله الذى يوحيه إليك ، وبالعبر والمواعظ التى جعلها فى كتابه حجة عليهم ، وذكرهم بها فى تنزيله ، كالذى عدده فى هذه السورة .

وخاصمهم بالخصومة التى هى أحسن من غيرها ، بأن تصفح عما نالوا من عرضك من أذى ، وترفق بهم بحسن الخطاب ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾[1] الآية .

وقال آمراً موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون : ﴿ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾[2] .

ثم توعد سبحانه ووعد فقال : ﴿ **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ :

---

(١) الآية ٤٦ من سورة العنكبوت .
(٢) الآية ٤٤ من سورة طه .

أى إن ربك أيها الرسول هو أعلم بمن جار عن قصد السبيل من المختلفين فى السبت وغيره ، وأعلم بمن كان منهم سالكاً قصد السبيل ومحجة الحق . وهو مجازيهم جميعاً حين ورودهم إليه بحسب ما يستحقون .

وخلاصة ذلك — سلك فى الدعوة والمناظرة الطريق المثلى ، وهى الدعوة بالتى هى أحسن وليس عليك غيرها .

أما الهداية والضلال والمجازاة عليهما فإلى الله سبحانه لا إلى غيره ، إذ هو أعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال لسوء اختياره ، وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما ينطوى بين جنبيه من الخير ، فما شرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة ، وهو كاف فى هداية المهتدين ، وإزالة عذر الضالين .

ولما أمر الله رسوله بالدعوة وبين طريقها ، وكانت تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم ، والحكم عليهم بالكفر والضلالة ، وذلك مما يحمل أكثرهم على إيذاء الداعى إما بقتله أو بضربه أو بشتمه ، كما أن الداعى يدعوه طبعه إلى تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وأخرى بالضرب ، لا جرم أمر سبحانه المحقين برعاية العدل والإنصاف فى العقاب وترك الزيادة فيه فقال : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾ : أى وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم فلكم فى العقاب إحدى طريقين :

١ — أن تعاقبوه بمثل الذى نالكم به ظالمكم من العقوبة .

٢ — أن تصبروا وتتجاوزوا عما صدر منه من الذنب وتصفحوا عنه ، وتحتسبوا عند الله ما نالكم به من الظلم ، وتكلوا أمركم إليه والله يتولى عقوبته ، والصبر خير للصابرين من الانتقام ، لأن الله ينتقم من الظالم بأشد مما كان ينتقم منه لنفسه .

والخلاصـــة : أنكم إن رغبتم فى القصاص فاقنعوا بالمثل ، ولا تزيدوا عليه ، فإن الزيادة ظلم والظلم لا يحبه الله ولا يرضى به ؛ وإن تجاوزتم عن العقوبة وصفحتم فذلك خير وأبقى ، والله هو الذى يتولى عقاب الظالم ويأخذ بنصر المظلوم .

ثم أمر رسوله بالصبر صراحة بعد أن ندب إليه غيره تعريضاً ، لأنه أولى الناس بعزائم الأمور لزيادة علمه بشئونه تعالى فقال : ﴿ **واصبر وما صبرك إلا بالله** ﴾ :

أى واصبر على ما أصابك منهم من أذى فى الله ، ومن إعراض عن الدعوة ، وما صبرك إن صبرت إلا بمعونة الله وحسن توفيقه ومشيئته المبنية على الحكم البالغة التى تنتهى إلى عواقب حميدة .

وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وتهوين لمشاق الصبر عليه ، وتشريف له بما لا **مزيد عليه** .

﴿ **ولا تحزن عليهم** ﴾ : أى ولا تحزن على إعراض المشركين الذين يكذبونك ، وينكرون ما جئتهم به.

﴿ **ولاتك فى ضيق مما يمكرون** ﴾ : أى ولا يضيق صدرك بما يقولون من الجهل بنسبتك إلى السحر والكهانة والشعر إحتيالاً وخديعة ، لمن أراد الايمان بك وصدًا عن سبيل الله .

وقصارى ذلك : أنه نهى نبيه ﷺ أن يضيق صدره مما يلقى من أذى المشركين على تبليغهم . وحى الله وتنزيله ، كما قال : ﴿ فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به ﴾[١] ، وقال : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل ﴾[٢] .

فالله كافيك أذاهم ، وناصرك عليهم ، ومؤيدك ومظهرك عليهم ، فمهما حاولوا إيصال الأذى بك فإن الله يبعده عنك ويحبط ما صنعوا وهم لا يشعرون .

﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ : أى أن الله مع الذين اتقوا محارمه خوفاً من عقابه ، والذين يحسنون رعاية فرائضه والقيام بحقوقه ولزوم طاعته فيما أمرهم به ، وفى ترك مانهاهم عنه .

ونحو الآية قوله لموسى وهارون : ﴿ لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ﴾[٣] .

وقول النبى ﷺ للصديق وهما فى الغار فيما حكى الله عنه ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾[٤] .

وقصارى ذلك : أن الله تعالى ولى الذين تبتلوا إليه ، وأبعدوا الشواغل عن أنفسهم ، فلم يحزنوا لفوت مطلوب ، ولم يفرحوا لنيل محبوب ، والذين هم محسنون أعمالهم برعاية فرائضه ، وأوامر حقوقه على النحو اللائق بجلاله وكماله ، وقد فسر النبى ﷺ الاحسان فقال : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[٥] .

---

(١) الآية ٢ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٢ من سورة هود .

(٣) الآية ٤٦ من سورة طه .

(٤) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٥) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٣١ : ٢ ، وفى الايمان : ٣٧ . وأخرجه مسلم فى الايمان : ٥٧ . وابوداود فى السنة : ١٦ . والترمذى فى الايمان : ٤ . وابن ماجة فى المقدمة : ٩ . والامام أحمد فى ١ : ٢٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٣١٩ ، وفى ٢ : ١٠٧ ، ٤٢٦ ، وفى ٤ : ١٢٩ ، ١٦٤ .